سلام اليماني

اللـــؤلـــؤة

– قصص للأطفال –

من منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق – ٢٠٠٣

اعتذار

في هذه المجموعة كثير من الكلمات التي قــد تكون صعبةً على بعض القرّاء، وهي مشروحة في الهامش. وكنت أستخدم بدلاً منها ألفاظــاً أســهل وأكثر شيوعاً، لكنني فضّلت استخدامها قصداً ولو كانت صعبة بعض الشيء، وذلك للسببين التاليين:

١. *استعمال الكلمة المناسبة في مكانها المناسب، حرصاً على جمال التعبير. ونحن جميعاً كتّاباً وقرّاءً نعرف أن أيّة كلمة في لغتنا لا تحلُّ محلَّ غيرها إلا بالتقريب وليس بالدقة التامة.*

٢. *زيادة ثروة القارئ من مفردات اللغة.*

الكاتب

**

الجزء الأوّل :

بين الواقع والخيال

أنصاف الحكايات

أبو نشوان مدرّس للغة العربية وآدابها من شعر وقصة ومسرحية. حين ينهي دوامه المدرسي، يمر على دار الحضانة التابعة للاتحاد النسائي، ويصطحب ولده الوحيد نشوان.

أما أم نشوان فهي عاملة في معمل السكر، ودوامها أطول من دوام زوجها بثلاث ساعات، لذلك لا ينتظرها زوجها وابنها على الغداء، بل يتغديان فور وصولهما إلى البيت.

بعد الغداء يستلقي الأب في السرير ليستريح من إرهاق العمل، منتظراً مجيء زوجته لكي تهتم بنشوان فينام (الأب) كما تعوّد. يستلقي نشوان بجانب أبيه ويطلب حكاية. أبوه يحفظ الكثير من الحكايات التي يحبها الأطفال، ويقدر على اختراع بعضها أيضاً. لكن نشوان استهلك محفوظات أبيه كلها، فكان الأب في كل يوم يخترع حكاية جديدة، فتكون أحياناً موفقة جميلة، وأحياناً متعثرة وغير مقنعة.

في منتصف الحكاية، كان الأب ينام من التعب ومن نعاس ما بعد الغداء.

وفي اليوم التالي بعد الغداء كالعادة، كان نشوان قليلاً ما يطالب أباه بإكمال الحكاية السابقة، وغالباً ما يعفيه من ذلك ويطلب حكاية جديدة. وكان الأب يظن أن ابنه يهمل الحكايات التي لم تعجبه أو أنه ينساها.

××××××××××

عندما صار نشوان في الصف الثالث، أخــذه أبوه إلى مكتبة بيتهم وهو يقول:

-منذ اليوم يا نشوان، سوف تخلص من حكاياتي المتعثرة، التي أخترعها لك كل يوم بعد الغداء.

اعترض نشوان مبتسماً:

-لكنها جميلة.

-اسمعْني يا ولدي حتى النهاية. أنت الآن تقرأ جيداً ولا تحتاج إلى من يحكي لك الحكايات. وهذا القسم من مكتبتي مخصص لأدب الأطفال، وفيــه عشرات من أجمل مجموعات الشعر والقــصص والمسرحيات.

-أعرف ذلك. وأنا أحاول أن أقرأ منها منــذ أصبحت في الصف الأول، لكنني الآن أقرأ فيهــا بشكل أفضل.

أمسك الأب رأس ابنه بكلتا يديه وهزَّه قائلاً:

–نشوان أيها الخبيث، تقرأ منذ سنوات ولا أدري؟!

ضحك نشوان وأبوه بسرور وانتهت تلك المفاجأة. لكن نشوان من ذلك اليوم ركز اهتمامه على مطالعة الأدب العربي والأجنبي المترجم، وفي خلال بضع عشرة سنة كان قد قرأ كل ما في مكتبة البيت من كتب الأدب للصغار والكبار، وبدأ يتردد على المركز الثقافي العربي، فيقرأ فيه أو يستعير الكتب منه ويقرأها في بيته. وكان بعد قراءة أي كتاب يعبر لأبيه عن رأيه بما قرأه، إعجاباً كان أم عدم إعجاب، وكان في بعض الأحيان يقترح تصحيحاً لما لا يعجبه، فكان الأب يبتسم ويقول:

–الكتاب على مسؤولية كاتبه، وإذا استطعت أن تصبح كاتباً فاقترح على نفسك ما تشاء.

××××××××××

مضى على بدايةِ هذه الحكايةِ بضعٌ وعشرونَ سنة. وأصبحَ نشوانُ طالباً في جامعةِ حلب، في الصفِّ الثالثِ من قسمِ اللغةِ العربيّةِ وآدابِها. ها هو يدخلُ على أبيه فرحاً وفي يده رسالةٌ مفتوحة. ألقى الأبُ نظرةً متفحِّصةً على الرسالةِ وعلى ابنه من خلفِ النظارةِ البصريةِ التي يضعُها الأبُ من عشراتِ السنين، والتي تزدادُ سماكةً سنةً بعدَ سنة.

-ما لَكَ فرِحاً وما هذه الرسالة؟

-أرسلَها إليَّ اتحادُ الكُتّابِ العرب.

-ما علاقتُكَ بهم يا ولدي؟ ماذا يريدون؟

-لقد وافقوا على طبعِ مجموعتي القَصَصيّةِ ونشرِها باسمي وعلى حسابِهم أيضاً.

دهِشَ الأبُ دهشةً عظيمةً وسألَ ابنَه وهو ينهض:

-أنتَ ألّفتَ مجموعةً قصصيّة؟!

-أربعةٌ وخمسونَ قصّة قصيرةً موجَّهةً للكبار.

أقبلَ الأبُ على ابنِه يعانقُهُ ويقبّلُهُ وهو يقول:

-مبروكٌ عليكَ يا ولدي، ألفُ مبروك.

ثم ابتعدَ عنهُ سائلاً بعتبٍ ومحبّة:

-كيف أصبحتَ كاتباً دونَ أن أعلم؟

-الفضلُ لحكاياتكَ في طفــولتي، وخــصوصاً أنصافَ الحكايات، أَي التي كنتَ تنامُ في منتصفِها.

-ولماذا أنصافُ الحكاياتِ تلكَ بالذات؟

-لأني كنتُ أكملُها بنفسي وأنتَ نائم.

××××

والآنَ يا قرّائي الأعزّاء، لو توقّفْتُ أو نمْتُ أنا في منتصفِ هذه الحكاية، فكيف يمكنُ أن تكملوها؟

الفَراشات

جاءت القابلةُ[1] العجوزُ تحملُ إلى الْمَلِــك أوّلَ أولاده، وهما توءمانِ متشابهانِ وُلِدا تلكَ الـسَاعةَ بفارقٍ لحَظاتٍ معدودة. كانَ التوءمان فــي ثيــابٍ متماثلَة، والعجوزُ مرتبكــةً وخائفــة، وأرادَت أنْ تغطّي مشكلتَها بالْمُزاح:

-احزِرْ يا مولايَ أيَّهما وُلِد قبلَ الآخرَ..

---

[1] المرأةُ التي تولّدُ النساء. في العاميّة يسمّونها الداية.

كانت العجوز قد شَهِدَتْ ولادتَهُ هو من بطــنِ أمِّه، ويحترمُها كأنهــا جدّتــهُ، فابتــسمَ لِمُزاحِهــا ثم قال:

-أراكِ مرتبِكةً وتَمزحينَ فما المشكلة؟

-أعطِني الأمانَ فأشرحُ المشكلة.

-هل أنا جبّــارٌ بطّــاشٌ فتطلبــي الأمــان؟! أخبريني بالمشكلة كي أحلَّها.

-لا أحدَ يحلُّها يا مولاي. لا أحدَ يعــرفُ أيُّ التوءمينِ ولِدَ قبلَ الآخَر، لا أنا عرفتُ ولا أَمّهُ ولا الخادمات.

-عجباً، كيف يكونُ ذلك؟!

-المَخاضُ[1] كانَ شاقّاً ومُربِكاً وفوجئنا بالطفلِ الثاني دونَ أن نتوقّعَه، ولو توقّعْناهُ لأعدَدْنا ثيابــاً من لونٍ مختلفٍ تُميّزُه، وهكذا ألبسْناهُ ثوبَ أخيــهِ

---

[1] *آلامُ ما قبلَ الولادة.*

كما ترى..

فكّرَ الملكُ الحكيمُ لحظةً ثم قالَ يُطَمْئِنُ القابلة:

-لا ترتبكي ولا تقلقي، رُبَّ ضارَّةٍ نافعة.

-كيف لا أقلقُ يا مولاي؟! أكبرُ الإخوةِ هو الذي يرثُ العرشَ- بعدَ عُمرٍ طويلٍ- ونحنُ لا نعرفُه.

-لا داعي لأن نعرِفَه. لا نحنُ ولا الحكماءُ الثلاثةُ الذين يساعدونني في إدارةِ المملكة.

-ما هدفُكَ من هذا كلِّه؟

-لقد حاولتُ أن أكونَ عادلاً طولَ عمْري وأريدُ لخليفتي أن يكونَ أعدَل. وعندَما يكبرُ التوءمان، سأختارُ الأفضلَ منهما لِيَخلُفَني في الْمُلك..

×××××××

بعدَ ستِّ سنواتٍ توفّيَ الملكُ وفاةً مفاجِئة،

فاجتمعَ الحكماءُ الثلاثةُ لاختيارِ وريثِ العرشِ من الطفلين التوءمَين، على أن يبقى تحتَ وصايةِ الحكماءِ الثلاثةِ وإشرافِهم حتى يكبرَ ويصبح قادراً على الحُكم.

قالَ أحدُ الحكماء: أرى أن أحدَ التوءمينِ أطولُ قليلاً من الآخَر، وأقترحُ أن نُجريَ القُرعةَ عليهما بهذا الدينارِ الذهبيّ؛ الصورةُ للأطولِ والنقشُ للأقصر.

قالَ الحكيمُ الثاني: بل نسألُ أمَّهما أيُّهما تفضّل.

فقالَ الحكيمُ الثالثُ: كلاّ. نحن وحدَنا نقرّرُ شؤونَ المملكة؛ وعندي فكرةٌ أفضلُ لاختيارِ ولـيِّ العهد.

قالَ الحكيمانِ الآخَران: إن أعجبَتنا فكرتُكَ وافقْناكَ عليها ونفّذناها في الحال.

تهامسَ الحكماءُ الثلاثة، ثــم أمــروا فــانطلقَ الطفلانِ يلعبانِ في حديقةِ القصرِ الملكيّ، وأخــذوا يراقبونَهما من النافذة.

كان الطقسُ ربيعاً، والفَراشــاتُ تتنقّــلُ بــينَ الشجَيراتِ والأزهار، وبــدأ الطفــلانِ يطــاردانِ الفراشات.

قالَ الحكيمُ الثالث: الآنَ عرَفْتُ مَــن أختــارُ لولايةِ العهد، استدعوا الطفلين إلى هنا..

جاءت المربِّياتُ بالطفلين، وسألَ الحكيمُ الثالثُ الطفلَ الأقصرَ: ماذا كنتَ تفعلُ حينَ تتعبُ فراشــةٌ وتحطُّ على شجرة أو زهرة؟ قالَ الأمير: أتوقّــفُ وأتفرّجُ عليها؛ أفكّرُ في شكلِها وألوانِها.

ثم سألَ الطفلَ الأطولَ السؤالَ نفسَهُ فأجــاب: أُمسكُها وأضغطُ عليها، كي أعرفَ هل هي هــشّةٌ أم قاسية.

همسَ الحكيمُ الثالث لزميلَيه: إن كـــانَ يفعـــلُ هذا بالفراشاتِ الآن، فماذا ســـيفعلُ بالنـــاسِ فـــي المستقبل؟

وعلى الفَورِ أعلنَ الحكمـــاءُ الأميـــرَ الـــرحيمَ وريثاً للعرش.

4 4 4

شاعرُ الشعب

كان الملكُ غاضباً ثائراً حاقداً مقهــوراً بكــلِّ معنى الكلمة. صبَّ غضبَه عنيفاً على قائدِ الجيشِ واصفاً إيّاهُ بالجبن والتخاذل، وقرّعَهُ باللومِ تقريعاً شديداً، وأطلقَ في وجههِ حُمَماً ناريّةً من التهديــدِ والوعيد، وكانَ مما قالَهُ في تلك الساعة:

–للمرةِ الثالثةِ ينهزمُ جيشُنا أمامَ الأعداءِ وأنتَ المسؤولُ، فماذا ينقصُ جيشَنا ويمنعُهُ من النــصر؟ عدَدُهُ كبير، وســلاحُهُ جيّــدٌ، وتدريباتُــهُ عنيفــةٌ

متواصلة، فماذا يحتاجُ بعدَ هذا لينتصر؟

ظلّ قائدُ الجيشِ صامتاً لا يدري ما يقول. أمّا الوزيرُ الذكيُّ فبادرَ يقول: مولايَ الملكَ المعظّم، جنودُنا يفتقرونَ إلى الحماسةِ الوطنيّة. والحماسةُ يا مولايَ ليست طعاماً نطعمُهم إيّاهُ ولا سلاحاً نزوّدُهم به. الحماسةُ شعورٌ في النفْس، والشعورُ يُضرِمُهُ الشِّعرُ كما تُضرِمُ النارُ الحطب.

قال الملكُ متحمّساً للفكرة: أحضروا شاعرَ الشعبِ الآنَ في الحال.

بعدَ ساعةٍ واحدةٍ كان الشاعرُ في حضرةِ الملك، فأمرَهُ بحزمٍ ووضوح: اذهبْ إلى جنودِنا الآنَ في مواقعِهم على الجبهة، وأنشدْهم شعراً يُضرِمُ فيهم حبَّ الوطنِ والحماسة لانتصاره.

قال الشاعرُ بثقةٍ واحترام: أمرُ مولايَ. فقال الملك: اسمعْ أيها الشّاعر: إذا انهزمَ جيشُنا فسوف

أقطعُ رأسَك، أمّا إذا انتصرْنا فلَكَ منّي جائزةٌ ضخمةٌ من الذهب.

قال الشاعر: لن أفكّرَ الآنَ في الجائزة، وسأُلْهِبُ قلوبَ جنودِنا بحبِّ الوطن.

وانطلقَ الشاعرُ إلى تجمّعات الجنود على جبهةِ المواجهةِ مع العدوْ، وبدأ يُنَشدَهم قصائدَ رائعةً تعصفُ بقلوبِهم عصفاً، وتُضرِمُ مشاعِرَهم إضراماً، فكانوا يستعيدونَها ويستزيدونَ منها مرّة بعدَ مرّة.

لكنّ مُخبِراً من رجالِ الأمنِ السرّيينِ أسرعَ يهمسُ للملكِ والوزير: هذا الشاعرُ خائنٌ وعميلٌ للأَعداء. إنه لا يعلّمُ جنودَنا أناشيدَ تدعو إلى سحقِ الأعداءِ وتمزيقِهم وشُربِ دمائهم بدلَ الماء، بل يُلهيهم بقصائدَ سخيفةٍ تافهةٍ تتغنّى بجمالِ النساء، كي يُفسِدَ عندَهم إرادةَ القتالِ ويتسبّبَ في الهزيمة.

اشتعلَ الملكُ غضباً وأمرَ باعتقالِ الشاعر، كي يُحاكمَ صباحَ اليومِ التالي أمامَ الشعبِ ويُقطَعُ رأسُهُ بِجُرمِ الخيانة.

بعدَ ساعاتٍ قليلةٍ وتحت جُنحِ الليـل، صـارَ الشاعرُ سجيناً مكبّلاً بالأغلال، متّهماً بأنه خـائنٌ ومحرِّضٌ على التخاذُل[١]. لكنه كان واثقاً من نفسهِ ومن أشعارِه، فنامَ ليلتَهُ بينَ اليأسِ والأمل.

في صباحِ اليومِ التالي، تجمَّعَ الناسُ في ساحةِ العاصمة، ليشهَدوا محاكمةَ شاعرِهم وقطعَ رأسه. وعندَ الضُّحى جاءَ حرّاسُ السجنِ يقتادونهُ مُكـبَّلاً بالأغلال، وحضرَ الملكُ فـي موكِـبٍ عـسكريٍّ مَهيب[٢]، يتقدّمُهُ الطبّالونَ والزمّارونَ ويحيطُ بـه الوزيرُ وقائـدُ الجـيشِ والحاشـيةُ[٣] والحـرسُ

---

(1) *التخاذل: الحضّ على الجبنِ وتركِ القتال.*

(2) *ذو هَيبة.*

(3) *حاشية الملك هم أصدقاؤه وأتباعُهُ المقرَّبون.*

المسلّحون. وأمامَ الموكبِ كلِّهِ يسيرُ السيّافُ شاهراً سيفَهُ الضخمَ الرهيب.

توقفَ الموكبُ في جانبٍ من الساحةِ وهتفَ الوزير: باسمِ الوطنِ والعدالةِ، نعاقبُ هذا الشاعرَ بجريمةِ الخيانة، لأنهُ لم يحرّضْ جنودَنا على الحماسةِ الوطنيّة.

كانتَ صدمةً هائلةً للناس، فقد اعتادوا على حبِّهم للشاعرِ وحبِّه لوطنه، فبدؤوا يهتفونَ بأصواتٍ قويّةٍ مختلطة: أخبِرونا ماذا فعل؟ ماذا فعل؟ فرفعَ الوزيرُ يدَهُ وصاحَ رئيسُ الحرسِ: اسكتوا، فسكتَ الناسُ مترقّبين.

قال الملكُ للشاعر: ماذا أنشدْتَ الجنودَ أيها الشاعر؟

قال الشاعر: أنشدتُهم عن جمالِ الأرضِ والينابيعِ والشجرِ، عن أزهارِ الربيعِ وفراشاتِه

اللطيفة، عن ابتسامات الأطفالِ ولذّة الخبزِ الساخن، عن حنانِ الأمّهاتِ وكَدْحِ الآباءِ وحكمةِ الأجداد. أليس هذا هو الوطنُ يا مولايَ بلَ أروعُ ما في الوطن؟

ارتبَكَ الملكُ واحتارَ فيما يقول. لكنّ الوزيرَ الذي لا يكذّبُ رجالَ أمنه السريّينَ هتفَ بالشاعر:

–والنساءُ الجميلاتُ أيّها الشاعر، ألَمْ تتغزَّلْ بجمالِ النساء؟

–وهل تريدُ أن أتغنّى بجمالِ الشجرِ وأنسى جمالَ البشر؟ أليسَ جمالُ النساءِ بعضَ جمالِ الوطن؟

وأدركَ الناسُ حاجتَهُ للمساعدة فصاروا يهتفون:

–أشعارُهُ وطنيّة. أشعارُهُ ليست خيانة.

هذه المرّةَ احتارَ الملكُ والوزيرُ كلاهُما، ونظرَ

كلّ منهما إلى الآخَر كأنه يسألُهُ: ما العمل؟ وأخيراً هتف الملك:

-اسمعْ أيها الشاعر: لقد وعدتُكَ بـــالثّوابِ إذا انتصرْنا، وبالعقابِ إذا انهزمْنـــا، وإلـــى أن تقـــع المعركةُ ونعرفَ نتيجتَها ستبقى في السجن.

ثم أمرَ رجالَ الحرس:

-خذوه.

وأسرعَ الوزيرُ يخاطبُ الشعب:

-وأنتم تفرَّقوا، كلٌّ إلى عملِه.

×××××

بعدَ أيّامٍ قليلةٍ هجمَ جنودُ الملكِ على الأعـــداء، ولم تمضِ بضعُ ساعاتٍ حتى كانتَ جيوشُ الأعداءِ تنهزمُ مسحوقةً مشتّتة، وكانَ جنودُ الملكِ يرفعـــونَ راياتِ النصرِ ويهتفونَ هُتافاتِ الفرحِ العظيم. ثـــم استسلمَ قادةُ الأعداء، ووقّعوا ميثاقَ صـــلحٍ دائـــمٍ

وعدَمِ اعتداء.

وفي غَمْرة احتفالِ القصرِ المَلكيِّ بالنصرِ أمرَ الملكُ فأحضروا الشاعرَ من السجنِ حُرّاً من الأغلال، وخلالَ الطبولِ والزمورِ تقدَّمَ الملكُ وسْطَ حاشيتِه وألقى للشاعرِ بكيسٍ مخمَليٍّ فيه خمسُمئةِ دينارٍ من الذهب.

أخذَ الشاعرُ الكيسَ وانحنى للملكِ قائلاً: أمرُ مولاي. فانبرى الوزيرُ يوبِّخُه:

–هكذا أيّها الشاعرُ تقولُ كلمةً واحدة؟!

قال الشاعر:

–خيرُ الكلامِ ما قلَّ ودلَّ.

فهتفَ بهِ الوزيرُ بلهجةٍ آمرة:

–بلْ يجبُ أن تنشئَ قصيدةً طويلةً وتشكرَ مولانا على عدالتِه.

قالَ الشاعرُ هادئاً وواثقاً بنفسِه:

–لو انهزمَ جيشُنا لقطعتم رأسي فأينَ العدالــة؟ وهل أنا مُجبَرٌ على ضَمانِ انتصارِ الجيش؟

ذُهِلَ الجميعُ من هَولِ المفاجأةِ وتابعَ الشاعر:

– وهل يُضمَنُ النصرُ بمئة قــصيدةٍ أو ألــفِ قصيدة؟

قال الملكُ وهو يرتعِشُ من الغضب:

–لو أنّ من أخلاقِ الملوكِ أن يتراجعوا عــنِ عطاياتهم لسحبْتُ منكَ المكافأة، فخذْها وانــصرِفْ دونَ كلام.

قال الشاعر: أمرُ مولاي. وسوف أوزّعُ الذهبَ على الناسِ باسمِك، كي يُفرِحوا الأطفال.

♥ ♥ ♥

وطنُ الفقراء

كانَ في قديمِ الزمانِ طفلٌ في الـسابعةِ مـن العُمْرِ يتيمُ الأبوينِ اسمُهُ (أسعد)، يعيشُ معَ جـدِّهِ في قريةٍ كبيرةٍ خصبة، أقطعَها[1] الملـكُ لخـازنِ أموالِه.

[1] الإقطاع: هو أن يُملّكَ الحاكمِ أو الملكُ قطعة أرضٍ أو قرية أو عدّة قرى لشخصٍ معيّن، ملكاً شخصيّاً لـه ولأولادِه من بعده، ويكونُ الإقطاعي عادة من أقرباء الحاكم أو الملـك، أو مـن أتباعِه وأصدقائه.

جاءَ مرّةً إلى جدِّهِ يقول: اليومَ تشاجرتُ مع ابنِ الخازنِ في ساحةِ القرية.

قالَ جدُّه: لا يا أسعدُ، لا تتشاجرْ مع أحد.

قالَ أسعد: ابنُ الخازنِ قالَ لي ولكلّ أولادِ الفلاحين: هذه القريةُ وطنهُ هو لأنّ أباهُ يملِكُها، وليست وطنَنا.

قال الجدُّ بألمٍ عميق: هذا صحيح. أمّا نحنُ الفقراءَ فلنا وطنٌ آخَر.

سألَ أسعد: أينَ يا جَدّي، أينَ وطنُنا؟

قال جدّه: ستعرفُهُ في الوقتِ المناسب.

بعدَ مدّةٍ حصدَ الفلاحونَ القمحَ وجمعوا المحصولَ على البيادر، فقالَ أسعدُ لجدِّه:

-هذا البيدرُ كلّه لنا، ما أكبرَه وما أجملَه!!

أجابَهُ الجدّ:

-هذا وطنُنا، صنعناهُ بكدِّنا وعرقِنا بالليلِ

والنهار.

قالَ أسعدُ مستغرباً:

-هذا محصولٌ وليس وطناً.

فأجابَ جدُّه:

-هذا وطنُنا لأنّ فيهِ كلَّ أسبابِ حياتِنا: إن أكلْنا بعضَهُ وبعْنا بعضَه، نحصلْ علَى الغذاءِ والكساءِ والدواءِ والسعادة.

وصمتَ لحظةً ليتأكّدَ مِن أن حفيدَهُ يفهمُ ما يقولُ، ثم تابَع:

-وإن خبّأْنا من هذا البيدرِ ما يزيدُ عن حاجاتِنا، نضمَنْ، حياتَنا في سنواتِ الجفافِ وأمراضِ النباتِ وفسادِ المواسم.

قال أسعدُ بحماسة: هيّا ننقله ونخزِنُه.

فأجابَ الجدُّ بابتسامةٍ لم يفهمْ أسعدُ مغزاها: اصبِرْ يومينِ أو ثلاثةً وبعدَها ننقلُ ما تشاء.

بعدَ أيامٍ ثلاثة، جاءَ الخــازنُ يرافقُــهُ جنــودٌ مسلَّحون. وقفوا عندَ بيدرِ الجدِّ وأسعد. أخذوا ثُلُثَ المحصولِ حصّةً للملك، ثم أخذوا الثُلُــثَ الثــاني حصّةً للخازنَ، ثم أخذوا ثُلُثَ الثُلُثِ الباقي ضريبةً عن بيتِ أسعد، الذي صنعَ الآباءُ والأجدادُ لبِنَهُ من طين القريةِ وبنوهُ بالسواعدِ الكادحة.

أشارَ الجدُّ إلى بيدره الذهبيِّ المسلوبِ وقــالَ لحفيدهِ: هل عرفتَ الآنَ أين وطنك؟

المِصباح السحري

هجمَ لصوصٌ متوحّشونَ على بــلادِ النخيــلِ الأسمرِ جيوشاً جيوشاً، فدمّروا البيوتَ وأَحرقوهــا وقطّعوا الأشجارَ واستعبدوا الناس.

ذهبَ الناسُ إلى زعمــاءِ الــبلادِ يطــالبونَهم بتوحيدِ الجهودِ للخلاصِ من هذا البلاء.

قالَ الزعماء: نحنُ جميعا أضعفُ من الأعداء، وبدلَ أن تفكّروا في محاربتِهم والتعرّضِ لمزيدٍ من الخسائرِ والمصائب، أطيعوهم فتسلموا وتعيشوا.

عادَ الناسُ من عند الزعماء خائبين، وبدؤوا يفكّرونَ في مصيبتِهم من جديد. فجأة برزَ منهم رجلٌ يقول: أنا وجدْتُ الحلّ. تطلّعَ الناسُ إليه ملهوفينَ وغيرَ مصدِّقين. وتابعَ الرجل: إنهُ علاءُ الدين، هو عالِمٌ عظيم منّا وفينا. وأضافَ كمن يذيعُ سرّاً: وعندَهُ مصباحٌ سحريٌّ يخدمُهُ ماردٌ جبّار.. فانطلقَ الناسُ فوراً يتهاتفون[1]: إلى علاءِ الدين. إلى علاءِ الدين.

كانَ علاءُ الدين أشهرَ الناسِ في بلاد النخيل الأسمر؛ مفكّرٌ قديرٌ وطبيبٌ بارعٌ وكيميائيٌّ مجرِّب. وحينَ رأى الناسَ قادمينَ خرجَ إليهم واستقبلَهم بترحيبٍ واحترام. لكنّهُ عندما عرف قصدَهم خيّبَ آمالَهم المتحمّسة. قالَ إنه لا يملكُ أيَّ شيءٍ سحريّ، لا المصباحَ الأسطوريَّ ولا بساطَ

---

[1] يهتفُ بعضُهم لبعض.

الريحِ ولا خاتمَ سليمان، وأنّ مصباحَهُ الغريبَ الشكلِ هو مصباحٌ كحوليٌّ يستخدمُهُ في تجاربِ الكيمياءِ وصُنعِ الدواء. وفجأةً أدهشَهم بالعبارةِ التالية:

–لكنّكم تقدِرونَ على محاربةِ الأعداءِ دونَ مساعدةٍ من أحدٍ ودونَ قوّةٍ سحرية.

قالَ زعيمُ جماعةٍ من أولئكَ الرجال:

–نحن عُلَماءُ يا علاءَ الدينِ، لا نقدِرُ أن نحارب.

سألَ علاءُ جماعةً ثانية:

–وأنتم أيّها السادة؟

أجابَ أحدُهم:

–نحنُ صُنّاعُ هذه البلاد، نصنعُ كلّ لوازمِ المعيشةِ والعمل: الملابسَ والمعاولَ والمحاريثَ والأسلحَة، وبعضُنا خدمَ في الجيشِ وحاربَ أيضاً.

لكنْ إذا انشغلْنا بالحربِ فمَن يصنعُ الأسلحة؟

نظرَ علاءُ الدينِ إلى جماعةٍ من الشبابِ ذوي وجوهٍ مُسمَرّةٍ وعضلاتٍ مفتولةٍ، فبادرَهُ أحدُهم على الفور:

–نحنُ شبابٌ أقوياء، كنّا جنوداً حين هجمَ الأعداء، لكنّ قادتَنا تخلَّوا عنا وجرَّدَنا الأعداءُ من الأسلحة، فكيفَ نحاربُ بلا قادةٍ ولا أسلحة؟

التفتَ علاءُ الدينِ نحو آخرِ جماعةٍ من زوّارِهِ سائلاً:

وانتم أيّها السادة؟ ألا تقدرونَ على الإسهامِ في محاربةِ أعدائكم وأعداءِ البلاد؟

أجابَ زعيمُ الجماعة: نحنُ فلاحونَ كما ترى، نقدرُ أن نزوّدَ الناسَ والجنودَ بكلِّ ما يحتاجونَ من الغذاء. لكننا لم نجرّبِ الحربَ ولم نتعلّمْ فنونَ

القتال.

ابتسمَ علاءُ الدينِ للجميع وهو يقول:
–تملِكونَ هذهِ القُدُراتِ كلَّها وتريدونَ مصباحاً سحريّاً لقَهرِ اللصوص؟

الأعداء

على الضفّةِ الشرقيّةِ لنهرِ الأردُنِّ في قديمِ الزمان، كانت تقومُ إمارةٌ عربيّةٌ يحكمُها قائدٌ عسكريٌّ اسمُهُ (سيفُ الدين). وكانَ لهُ ولدٌ وحيدٌ في السابعةِ من عمرِهِ هو الأميرُ (همّام).

كانَ همّامٌ منذُ صغرِه شَغوفاً[1] بالحكايات. وكانت مُربيّتُهُ تُرضي شَغَفَهُ بقِصَصٍ من عالَمِ

---

[1] *الشغَف هو: شدّةُ الحبّ.*

الخيال: عن جزيرةِ الغيلانِ وحوريّةِ البحرِ والبساطِ الطائرِ وما إلى ذلك. فلمّا بلغَ همّامٌ السابعةَ من عمرِه بدأت المربيّةُ تضيفُ إلى قِصصِ الخيالِ أحاديثَ عن الواقعِ الذي يعيشُهُ ويحيطُ به، وتحدثُهُ عن أعداءِ بلادِه الذينَ جاؤوا من وراءِ البحار، واحتلّوا الأراضيَ الواقعةَ غربَ النهرِ من إمارةِ أبيه. لكنّها كانت تبالغُ في الحديثِ عن عدوانيّةِ الأعداء، وفي وصْفِهم بأقبحِ صفاتِ الخطورةِ والفظاعة.

××××

كانَ (همّامٌ) ذكيّاً سريعَ التعلّمِ قويَّ الخيال. وعندَما كانت المربيّةُ تحدّثُهُ عن الأعداءِ كانَ يُحلِّقُ بخياله، ويتخيّلُهم في صُوَرٍ مشابهةٍ للغيلانِ التي تصوِّرُها الحكايات. لكنهُ لم يكنْ يصدِّقُ خيالَهُ ولا يقبلُ أن يسمعَ عن أعدائه سَماعاً دون أن يراهم بنفسِه. كان يريدُ أن يعرِفَ ما همُ الأعداءُ في

الحقيقة؟ وما أشكالُهم وكيف يتصرّفون؟

××××

تسلّل ذاتَ يومٍ إلى ضفّة النهر واختبأَ بينَ الشجَيرات. كانَ أطفالٌ وفتيانٌ صغارٌ من الأعداءِ يلعبونَ على الضفّةِ ويسبحون.

اقتربَ من الضفّة أكثرَ متخفّياً بينَ الأعشاب الطويلة وأدهشتْهُ المفاجأةُ فقالَ في نفسه: أولادُ الأعداءِ يشبهونَ جميعَ الأولاد. أصابعُهم ليست مخالبَ. أنوفُهم ليست مناقيرَ ضخمةً وليس لهم أذنابٌ كالقرود. إنهم يضحكونَ ويمرحون، ويتبادلون الرشَّ بالماءِ أيضاً!! هل خدعَتْني مربيّتي؟ ما الخطيرُ وما الفظيعُ في هؤلاءِ الأولاد؟

خرجَ من بينِ الأعشابِ واقتربَ مكشوفاً ووقفَ على حافّةِ الضفّة، ليسمعَ جيّداً كلامَ الأعداء لعلّهُ يفهمُ منه شيئاً، وأزعجَهُ أن يسمعَ منهم لغةً

قبيحةً غريبةً غيرَ مفهومة. لكنّ أحـــدَهم ســـاعَدَهُ وحقّقَ لـــه رغبتَه: اتّجهَ إليهِ وهو يسبح، ثم توقّفَ في وسطِ الماء وخاطبَهُ بلغةٍ عربيّة مكسَّرة: اسمعْ أيُّها العربيّ، أَهلُنا قتلوا أهلَكُم وطردوهم من غربِ الأردنّ، ونحنُ سنطردُكم من شرقِه حـــينَ نكبَـــر، وسوف نُقيمُ دولتَنا من الفراتِ إلى النيلِ ونعـــيشُ بسلام.

نظرَ هَمّامٌ إلى بُرجٍ صغيرٍ على الضفّة التـــي يحتلّها الأعداء، وقد ارتفعَ فوقَهُ علمٌ يتـــألّفُ مـــن مساحة بيضاءَ يحدُّها خطّانِ أزرقان، وعـــرَفَ أنّ هذينِ الخطَّينِ يرمُزانِ إلى نهرَينِ كبيرين. فرجَـــعَ إلى قلعةِ والدِه، وقد عرَفَ بنفسِه حقيقةَ الأعداء.

اللؤلؤة

((حادثةٌ تخيّلَها الأديب الأميركيّ جون شْتاينبك، وافترضَ أنها تجري في أحد الشواطئ الأميركية. وها أنا أتخيّلُ مثلَها تحدثُ في الخليج العربيّ قبل اكتشافِ النفط وتطوّر الحياة))

××××

يعيشُ سعدٌ مع زوجتِه في قريةٍ صغيرة على شاطئِ الخليجِ العربيّ، يحترفُ سكّانُها الغوصَ لاستخراجِ اللؤلؤ. إنهم قومٌ من فقراءِ العرب، أمّا

قُراهم فهي أعشاشٌ من سعَف[1] النخيل، مكسوَّةً بطبقةٍ رقيقةٍ من الطين لسدِّ الفَجوات.

والغوّاصون رجالٌ أقوياءُ الأجسام، يستأجرُهم تجّارُ اللؤلؤ عندَ اشتدادِ حرِّ الصيف وهو موسمُ اللؤلؤ، ويأخذونَهم في مراكبَ خاصّة، ويبتعدونَ عن الشاطئِ مسافاتٍ طويلةً حيثُ المَغاصاتُ[2] الغنيّةُ بالْمَحارِ (أي الصَدَف).

يهبطُ الغوّاصونَ إلى أعماقِ الخليجِ فيجمعونَ المحارَ ويُخرجونَهُ إلى سطحِ المركَب، حيث يقومُ عمّالٌ آخَرونَ بفتحِه تحتَ رقابةِ التاجرِ ربِّ العمل، ويستخرجونَ ما في بعضِه من اللؤلؤ. وفي نهايةِ الموسمِ يوزِّعُ ربُّ العملِ على العاملينَ أجوراً متفاوتةَ المقاديرِ من التمرِ والأرزِّ وطحينِ

---

(1) السَعَفُ هو ورق النخيل مع أغصانه. المفرَد سعَفة.

(2) المغاصات هي أماكنُ الغوص. مفردها مَغاصة.

القمح، مؤونةَ غذاءٍ قد تكفيهم طيلةَ العام.

من هؤلاء الغوّاصينَ سعدُ بنُ حمدان. غوّاصٌ فقيرٌ يشتهرُ بقوّة الجسمِ وطولِ البقاءِ تحتَ المـــاء، وبالمهارة في معرفة مَحارِ اللؤلؤ. لكنّ قدراته هذه لا تجعلُ أجورَهُ أكثرَ من زملائه إلا قليلاً، الأَمـــرُ الذي يزعجُهُ بالليلِ والنهار، إذ يرى نفسَهُ يتـــسبّبُ للتجّارِ بالغنى ويبقى من الفقراء.

مرّةً بعد انتهاء الموسمِ وانصرافِ المراكـــب، قرّرَ سعدٌ أن يقومَ بمغامرة في الخلـــيجِ ويجـــرّبَ حظّه. سبحَ مسافاتٍ طويلةً رغمَ وجـــودِ أســـماكِ القرشِ المفترسة، ووصلَ إلى إحدى المغاصـــات. وبينَ الأملِ في العثورِ على بعضِ اللؤلؤِ والخوفِ من القرشِ المفترس، حصلَ أخيراً علـــى مَحـــارةٍ شديدةِ الضخامة.

استلَّ سكّينَهُ وفتحَ المحارةَ تحتَ الماء، فوجـــدَ فيها أكبرَ لؤلؤةٍ رآها أو سمعَ عنها فـــي حياتِـــه،

فأخرجَها من لَحمِ المحارةِ ووضعَها في جعبتِه وصعِدَ إلى سطحِ الماء، واتجهَ سابحاً إلى الشاطئ.

بدأ جسمُهُ يتشنّجُ وسطَ الماء، ولعلّ ذلك لاشتداد خوفه على حياته من أسماك القرش بعدَ أن صارتَ الثروةُ في جعبتِه. وفجأةً ساعدَهُ الحظُّ باقترابِ سربٍ من الدلافينِ أعداءِ سمكِ القرش، فانخرطَ بينَ الدلافينِ يسبحُ معها مقترباً من الرمل، ثمّ غادرَها سابحاً بكلِّ عزمِه إلى الشاطئ.

جلسَ على الشاطئِ يستردُّ أنفاسَه، ثم فتحَ الجعبةَ واطمأنَّ على اللؤلؤة، وأطبَقَ عليها بجُمعِ يدِه وسارَ إلى كوخِه متظاهراً بعدمِ الاهتمام، كي لا ينتبهَ إليه أحدٌ فينكشفُ سرُّه.

في الكوخ قالَ لزوجته: هذه اللؤلؤةُ ستجعلُنا أغنياءَ وتخلّصُني من العملِ بالأجرة، فلا تخبري أحداً عنها على الإطلاق. أخاف أن يعلَمَ اللصوصُ فيسلبوني إيّاها، أو يعلمَ التجّارُ أربابُ العمل،

فيتهموني بسرقتها خلالَ الموسم.

قالت زوجتُه: بالعكسِ يا سعد. أخبِرْ جميعَ أهلِ القرية، إنهم قومُنا، وبهم تحمي نفسَكَ من اللصوصِ ومن اتّهام التجّار.

قال سعدٌ مصرّاً على رأيِه: كلاّ، كلاّ. السكوتُ أفضل. ومعَ الفجرِ أنطلقُ بها إلى مدينةِ دُبَيّ، فأبيعُها وتنتهي الحكاية.

كان في الكوخِ المجاورِ ثلاثةٌ من حُرّاسِ مركَبِ الغوص، وهم رجالٌ شَرِسونَ مسلّحونَ بالسيوفِ والخناجر، يستأجرُهم التجّارُ طيلةَ الموسم، فيحرسونَ اللؤلؤ على السفينةِ وفي الطريقِ إلى مدينة دبيّ، ثم ينتظرون حتى الموسمِ القادم.

من خلالِ السَعَفِ والطينِ سمعَ الحرّاسُ حِوارَ سعدٍ وزوجتهِ، وقرّروا أن يسلُبوه اللؤلؤة.

عندَ الفجرِ انطلقَ سعدٌ إلى مدينة دُبَيّ مشياً مع الشاطئ، وانطلقَ الحراسُ الثلاثةُ خلفَه بعدَ مدّة، ليمارسوا فعلَ اللصوصِ وقطّاعِ الطرق.

وعلى الشاطئِ الرمليِّ الخالي من الناس، التفتَ سعدٌ إلى ورائه ليطمئنّ، فرأى الحرّاس الثلاثةَ مسرعينَ إليهِ فأحسَّ بالشرِّ وبدأ يركض.

ركضَ اللصوصُ خلفَ سعدٍ وكانت مطاردةً عنيفة.

توقّفَ سعدٌ لحظةً يفكّرُ: أينَ الْمَفرّ؟ البحرُ عن يمينِه والصحراءُ أمامَه وعن يسارِه، واللصوصُ خلفَه بسيوفٍ مرفوعة لامعة. أيقنَ أنهُ إن أعطاهم اللؤلؤةَ فسوفَ يقتلونَهُ لا محالَة فهو خصْمٌ وشاهِد. فألقى اللؤلؤةَ في البحرِ بكلِّ ما يستطيعُ من قوّة.

في نفسِ اللحظةِ وصلَ اللصوصُ إليهِ فقالَ: غوصوا واسترجِعوها.

قالَ أشدُّهم شرّاً وعدوانيّة: بل تغــوصُ أنــت وتأتينا بها، أو نقتلُك.

قالَ سعدٌ في نفسه: هذا بالضبطِ مــا أريــدُه. وقذفَ نفسَه في البحرِ وسبح وسبح، ثــم غــاصَ تحتَ الماءِ وابتعدَ قدْرَ استطاعتِه.. وما زالَ يسبحُ ويغوصُ حتى وصلَ إلى قريتِه، ونادى على قومِه وحكى الحكاية.

أمّا اللصوصُ فكانوا يتابعونَهُ علــى الــشاطئ حتى صاروا على مَقرُبةٍ مــن القريــة. وعنــدَما شاهدوا اجتماعَ الغوّاصينً، أدركوا أنهم قد انكشفوا فهربوا مسرعين.

وعانقَ سعدٌ رجالَ قومِهِ فرِحاً بسلامته.

جابِرٌ وجُبَير

((كتبوا هذه الحكاية قبلاً أكثر من مرّة، وكــلّ مرّة بشكل جديد، وهذا ما أحاولــه الآن، ولعلّــي أوفَّق))

رُزِقَ الملِكُ ثلاثَ بنات ولم يُرزَقْ بولد واحد، فأصبحَ قلقاً يخشى أن ينتقلَ عرشُهُ إلى أقارِبِه بعدَ وفاتِه. وكلَّما مرَّ الزمنُ وكثُــرَت بنــاتُ الملَــك،

تفاقَمَ[١] بهِ القلقُ حتى صارَ همّـاً يُفـسدُ حياتَـه، وتعاظَمَ سَعيُهُ للحصولِ على الولد.. تزوّج كثيـراً وطلّق كثيراً وخلّف خمساً وستّين بنتـاً.. وأخيـراً جاءهُ الولد.

حينَ حُمِلَ إليهِ الولدُ فرِحَ لحظةً ثم انتابَهُ هَـمٌّ عظيم: الطامعونَ بالعرشِ كثيرونَ وربّما يفكّرون في اغتيال[٢] الأميرِ أو تسميمه ليرثوا العرش، فهل يتركُهُ يعيشُ تحتَ الخطرِ؟ أم يدبِّرُ لـه عيشةً آمنةً ريثما يكبرُ ويصبحُ قادراً على الإمساكِ بالْحُكم؟

أمرَ الملكُ فأرجعوا الطفلَ إلـى والدتـه. ثـم استدعى وزيرَهُ لعلَّهُ يجدُ لـه تدبيراً يطَمئنُهُ علـى ولدِه.

جاءَ الوزيرُ سريعاً واسـتمعَ برَوِيّـةٍ[٣] إلـى

---

(1) تعاظَمَ وتزايدَ أذاه وشرّه.
(2) الاغتيال هو القتل غدراً.
(3) الرويّة هي التأنّي والصبر.

الملِك، وفّكرَ مليّاً[1] ثمّ قال:

–وجدْتُها.. وهي حيلةٌ قديمةٌ عندَ الملوكِ في مثلِ حالتِك.

قالَ الملك:

–فما هي؟

قالَ الوزير:

–نبدِّلُ الأميرَ سرّاً بوليد لأسرة من الشعب، فينشأُ ابنُ الشعبِ في قصركَ على أَنهُ ولدُك، وينشأُ الأميرُ عندَ الأسرة الشعبيةِ بعيداً عن الخطر. وبعدَ عشرينَ سنة نكشِفُ الحقيقةَ للناس، وننصِّبُ الأمير وليّاً للعهد.

قالَ الملك:

–نعْمَ التدبيرُ يا وزيرَ الذكاء. فكيف ومتى يكونُ ذلك؟

---

[1] *طويلاً.*

قالَ الوزير:

–يجبُ أن يتِمَّ ذلــك بأســرعِ وقــت ممكــن، وبشرطِ أن لا تنتبِه الخادماتُ والمربِّياتُ للمسألة.

فقالَ الملك:

–لكنّ خادماتِ الملكةِ والمربِّياتُ رأينَ الأميــرَ فورَ ولادتِه وحملْنَهُ إليّ.

قالَ الوزير وهو يضحك:

–مسألةٌ بسيطة. سندبِّرُ بديلاً في مثــلِ عُمــرِ الأميرِ ومثلِ لونه، وتأمُرُ جلالتُكَ بِحَجْبِ الأميــرِ عن الخدمِ والمربِّياتِ أربعينَ يوماً بحُجَّةِ حمايتِــهِ من العينِ الحاسدة..

فضحكَ الملِكُ وتابع:

–وبعدَ أربعينَ يوماً تتغيّرُ ملامِحُهُ ولا ينتبِــهُ أحد.

–أستأذِنُ يا مولايَ لأبدأَ البحثَ والتدبير.

وخرجَ الوزيرُ مسرعاً منهمكاً يفكِّـر، وأمـرَ الملكُ فوراً بحَجبِ الأميرِ عن الجميعِ إلا والدتَـه، حجباً يبدأُ الآنَ ويمتدُّ أربعينَ يوماً، بقصدِ حمايتِـهِ من العينِ الحاسدة.

××××

بعدَ أيّامٍ ثلاثةٍ لا أكثر، أقبلَ الوزيرُ على الملكِ متلألئَ الوجهِ فرحاً وهو يقول:

-أبشِرْ[1] يا مولايَ أبشِر. وجـدْتُ مـا قالَـه الشاعر..

فقاطعَهُ الملك:

-دعني من الشعرِ وهاتِ الكلامَ الْمُفيد.

قالَ الوزير:

-الكلامُ المفيدُ في بيتِ الشعرِ فاصبِرْ أرجوك.

---

[1] تفاءلْ.

ألَحَّ الملكُ وقد فقدَ صبرَه:
-انطِقْهُ بسرعةٍ، خلِّصْني.

فأنشدَ الوزير:

وعلِمْتُ حينَ العِلْمُ زَيــنٌ للفتــى

أنَّ التي ضــيَّعتُها كانــت معــي

قالَ الملكُ بانزعاجٍ وإصرار:
-سَمعتُ ولم أفهمْ فماذا تعنــي، ومــا التــي ضيّعْتَها واكتشفتَ أنها معك؟

قالَ الوزير:
-منذُ تلكَ الليلة استدعَيتُ المخبرينَ الــسرّيين، وأمرتُهم بالبحثِ والاستقصاءِ[1] في بيوتِ الــشعبِ

---

[1] *الاستقصاء هو البحثُ والسؤالُ إلى أقصى مدى أي أبعد مدى.*

عن طفلٍ وُلدَ لتَوِّه[١] أو منذُ أيام، علــى أن يبقــى البحثُ سرّاً لا يعرَفُهُ أحد. واليومَ وجدْتُ الــضالّةَ المنشودةَ[٢] في قصري أنا: زوجةُ البستانيِّ عندي أنجبَت ولداً يومَ وُلدَ الأمير. وقد أغريتُها وزوجَها ببعضِ الذهب، فقبِلا بالمبادلةِ عشرينَ سَنة وبِكَــتمِ السرّ.

أشرقَ وجهُ الملكِ وارتاحَ في جلستهِ وقال:

-أحسنتَ أحسنت، الآنَ اطمأنَّ بالي.

وعلى الفَــور أحــضروا الطفــلَ والطبيــبَ الكحّال[٣]، فوشَمَ[٤] ذراعَ الطفلِ بــشعارِ[١] الملــكِ

---

(1) التوّ هو الزمن الحاضر. حدثَ لتوِّه: حدث الآنَ في هذه الساعة.

(2) ضالّة المرء هي هدفه الذي يبحث عنه كأنه ضلّ عنه أي ضاعَ منه، فهو ينشدُهُ أي يطلبه ويبحث عنه.

(3) الذي يداوي بالكُحل. وقد كان الكحلُ دواء لبعض أمراض الجلد.

(4) الوَشم: رسمٌ بالكُحل يُدَقُّ بالإبَر على الجلدِ فيبقى مدى الحياة.

ليتميَّز به طولَ عمرِه، ثم أخذتهُ زوجةُ البستانيِّ إلى بيتِها بعدَ أن وضعَت محلَّهُ طفلَها، وأطلَق الملكُ على ابنِهِ اسمَ "جابرٍ" وعلى ابنِ البستانيِّ اسمَ: جُبَير.

××××

في أسرة البستانيِّ نشأ الأميرُ جابر، فلَقيَ الحُبَّ والحنانَ من الأبوينِ والأولاد، ونشأ مَثَلَهم على حبِّ العملِ والتحلّي بمكارمِ الأخلاق.

ونشأَ جَبَيرٌ في قصرِ الملكِ نشأةَ الأمراء، عنايةٌ ولَعبٌ وتعليم، ثم رياضةٌ وفروسيّةٌ وسباحةٌ ورِمايةٌ للسهامِ ومبارزةٌ بالسيف. وقد بَرَعَ في ذلك كلِّه، لكنه كان يشعرُ بشيءٍ ينقُصُهُ وهو حُبُّ الأبوين. وكلّما تقدَّمَ الزمنُ ترسَّخَ شعورُهُ بأنه غيرُ

---

(1) *الشعار كالخاتم أو التوقيع: علامة مميِّزة لصاحبها تدلُّ عليه وحده.*

محبوب فنشأَ لا يشعرُ بالحبِّ نحو أحـــد. وعنـــدَما كبِرَ كانَ مثالاً للأميرِ الحازمِ والعسكريِّ المـــاهِر، لا عيبَ فيهِ إلاّ قسوةُ قلبِهِ وجَفافُ عاطفتِه.

××××

وما أسرعَ ما يَمرُّ الـــزمنُ، خـــصوصاً فـــي الحكايات. وهكذا وجدَ الأميرانِ المزيَّفُ والأصيلُ نفسَيهما في حفلة ملَكيّة حاشدة، وأمامَ حقيقة جديدة أعلنَها الوزيرُ بعدَ أن كَـــشفَ عـــن ذراعِ الأميـــرِ جابر، وأظهرَ للجميعِ وَشْمَ الملكِ على ساعدِه..

انحنى جابرٌ لأبيهِ تحيّةَ احترامٍ وقال:

–والدي ومولايَ المعظَّم، لـــئن ســـرَّني أنـــي غدَوتُ أميراً ووليّاً لعهدك، فقد أحزنَني فراقُ أبويَّ الكريمينِ الـــواقفَينِ أمامَـــك، البـــستانيِّ الطيّـــبِ وزوجتِه، اللذينِ عـــشتُ بينَهمـــا أجمـــلَ ســـنواتِ عمري، متمتّعاً بالحبِّ والعملِ والفـــضيلة. وإنـــي أعاهدُهما أمامَكَ وأمامَ الجميع، أن أبقى وفيّاً لهمـــا

ولإخوتي منهما طولَ الحياة.

أشرقَ وجهُ الملكِ فخراً وإعجاباً وقال:

-أحسنتَ يا ولدي أحسنت. هذه حقّاً أخلاقُ الأمراء.

أمّا جُبَير، الذي خسرَ كلَّ شيءٍ وهوى من قِمّةِ المجدِ في لحظةٍ واحدة، فواجهَ الصدمةَ بقسوةِ القلبِ التي تربّى عليها، وحدّقَ في وجهِ الملك وهو يقول:

-أمّا أنا، فلن أبقى في هذه المملكةِ بعدَ اليوم.

فعاجلَهُ الوزيرُ موبِّخاً:

-أهكذا تشكرُ مولاكَ على نعمتِه؟

قالَ جُبير:

-هل أشكرُه لجعلي عُرضةً للقتلِ عشرينَ سنة؟ أم لجعلي سخريةً للناسِ بقيّةَ حياتي؟

قالَ الملكُ باحتقار:

-أنت وقحٌ وبلا أدب.

أجابَ جُبير بجفاف:

-هذهِ تربيتُكم ولا ذنبَ لي.

وانصرَفَ صُلبَ القامةِ جامدَ النظرةِ لا يلتفتُ إلى أحد. وحين مرَّ بوالدَيهِ صرخَت أمّهُ تستوقفُه:

-ولدي جُبير، ودِّعْنا على الأقلِّ فنحنُ أبــوكَ وأمُّك.

فنظرَ إلى والدَيهِ قائلاً دونَ أن يتوقّف:

-وهل أعرفُكما؟

وتابعَ حتى خرجَ والجمعُ صامتون. أمّا والدته فسالَت دموعُها وهمسَت لزوجِها:

-لننصرفْ نحنُ أيضاً.

فأجابَ زوجُها:

-فقد خسرنا ولدنا لكننا كــسبْنا أميــراً وفيّــاً رحيماً نشأَ على يدَينا، وسوفَ يكونُ أفضلَ ملــك.

هذا عزاؤنا عن الخسارة.

الليمونات الثلاث

كان في قديمِ الزمانِ مملكةٌ صغيرة، أرضُـــها خيِّرةٌ وأهلُها طيّبون. أمّا الملكُ واسمُهُ "مَيمـــونٌ"، فكانَ جبّاراً لا يعرفُ الرحمة، ويخافُـــهُ أصـــدقاؤهُ قبلَ أعدائه، لكنّ فيه نقطةَ ضَعف واحدةَ هي حبُّـــه الجنونيُّ للّيمون، فإذا رأى ليمونـــةً ولـــو تافهـــةً ضعُفَت إرادتُهُ وصارَ يتلهّفُ عليها كالمحروم، فإن كانَ حينذاكَ مكتفياً من أكلِ الليمون، فإنـــه يطبِـــقُ كفَّهُ على تلكَ الليمونةِ لا يترُكُها كأنها كنـــزٌ مـــن

الكنوز.

وقد بلغَ من حبِّه للّيمــونِ أن جعــلَ صــورةَ الليمونةِ شعاراً للمملكة، يُنقَشُ على علَمِها وثيــابِ الأسرةِ المالكة، وثيابِ الــوزيرِ وقــادةِ الجــيشِ وقبّعاتِ الجنود. ثم تمادى في ذلك فأمرَ ببناء قصرٍ ملكيٍّ جديدٍ على شكلِ نصفِ ليمونة، وسمّاهُ قبــلَ أن يُبنى: قصرَ الليمونة.

استغرقَ بناءُ القصرِ سنتين، وبدأ الملكُ يستعدُّ لافتتاحه، فدعا الملوكَ المجاورينَ والأمراءَ وقــادةَ الجيش، والأغنياء وكبارَ التجّار، وأقامَ في القصرِ احتفالاً لم تعرِف البلادُ أضخمَ منهُ ولا أشدَّ إسرافاً وترَفاً. فبعدَ الموائدِ العامرةِ بما لــذَّ وطــابَ مــن الطعامِ وشرابِ الليمونِ بالعسل، رقــصَ الجميــعُ رقصةَ الليمونة، وهي رقــصةٌ ابتكرَهــا معلّمــو الرقصِ عندَ الملكِ مَيمون، لتكونَ الرقصةَ الجديدةَ والوحيدةَ المسموحُ بها في بلادِهِ بعدَ الآن.

في نهايةِ الحفلةِ أمرَ الملكُ ميمــونٌ بتوزيــعِ الهدايا على الضيوفِ. وفــوجئَ هــؤلاء بالخــدَمِ يحملونَ إليهم أطباقاً مليئةً بثمارِ الليمونِ الكبيــرةِ الناضجة، وحين مدّوا أيديَهم إليها، اكتــشفوا أنهــا جواهرُ ضخمةٌ وسبائكُ ذهبيّةٌ صيغَت[1] على شكلِ الليمون.. وهكذا بلغَت كُلفةُ الحفلةِ ســبعةَ ملايــينَ من ليراتِ الذهب.

ردّ الضيوفُ على نعمةِ الملكِ بالثناءِ والتمجيد، وسمّاهُ أميرٌ مجاورٌ لبلاده "ملكَ الليمون"، فازدهى ميمونُ بهذا اللقب، وأعلنَ أمــامَ الجميــعِ تــسميةَ مملكته "مملكة الليمونة" بعدَ أن كانَ اسمُها "المملكة الميمونَة"[2].

××××

---

[1] *تمّت صياغتها.*

[2] *اليُمْنُ هو الخيرُ والبركة.*

في الخريفِ التالي، وثمارُ الليمــونِ فجّــةٌ[1] صغيرة، اجتاحَت المملكةَ كارثةٌ رهيبةٌ لــم تــشهدْ مثلَها على الإطلاق؛ موجةٌ مفاجئةٌ وقاســيةٌ مــنَ الثلجِ والصقيع. وتكاثفَ الثلجُ طبقاتٍ صلبةً فــوقَ طبقات، وبدأ الناسُ يعانونَ من البردِ وقلّةِ الوَقود.

ما كانَ الملكُ المستدفئُ في قصرِهِ يهتمُّ بالناسِ ولا بالبلاد، بل كان دماغُهُ يتقافزُ في رأســهِ بهَــمٍّ واحد: ما مصيرُ أشجارِ الليمونِ وهي لا تحتمــلُ البردَ ولا تصمُدُ للصقيع؟

كان خوفُ الملكِ في محلّه. وبــدأت أشــجارُ الليمونِ تيبَسُ وتموت.

تحوّلَ قلقُ الملكِ إلى هلَعٍ وبدأ يتحرّكُ في كلِّ اتجاهٍ كــوحشٍ حبــيسٍ فــي قفــص، ويوَســوِسُ كالمجنونِ بكلمةٍ واحدة: الليمون.. الليمون..

---

[1] *غير ناضجة.*

كان يملكُ مخازنَ من سبائك الذهب، ويقدرُ أن يستوردَ من الممالك المجاورة ما يشاء، لكنه كان يخشى أن يشمَتَ الملوكُ المجاورونَ ويقولوا: ملِكُ الليمونِ محتاجٌ إلى الليمون..

رغمَ هذه المخاوف الأليمة، فإن الملكَ لم يفقدْ عقلَهُ تماماً ولم يَعدَمْ التدبيرَ والحلةَ، فأمرَ مزارعي مملكته بتدفئة أشجارِ الليمونِ بكلِّ الوسائل الممكنة، ووعدَ بمكافأةَ مقدارُها ليمونةٌ من الذهبِ ثمناً لكلِّ ليمونةٍ ينتجُها أيُّ إنسانٍ في المملكة.

××××

كان في المملكةِ فلاّحٌ كهلٌ عركتهُ الحياةُ وعلّمتهُ التجارب، وهو منذ طفولته مثالٌ للذكاء والنشاط وحُبِّ الشعرِ والحكايات. كان أبوهُ فلاّحاً فقيراً يملكُ أرضاً صغيرةً ويعيشُ منها. أما الفتى فقد دفعَهُ الفقرِ وحبُّ المغامرةِ إلى أعمالٍ مختلفةٍ عديدة. اشتغلَ صيّاداً وبحاراً وجندياً وحدّاداً وفي

كلِّ مهنة تخطرُ على البال. مع هذه الأعمالِ كلِّها كان يجمعُ الناسَ حولَه، فيحرّكُ وجدانَهم ويثيرُ خيالَهم بما يقصُّهُ عليهم من مغامرات وما يخترعُهُ من حكايات، وكانَ يضيفُ إلى روعةِ الحكاياتِ جمالَ الشعرِ والغناء.

حينَ توفّي أبوه، هجرَ أرضَهُ الصغيرةَ الجرداءَ وانطلقَ يتجوّلُ بينَ الناسِ كالطيرِ المُهاجرِ: شاعراً شعبياً وقصّاصاً متجوِّلاً في القرى والحارات الشعبية الفقيرة.

لكنّهُ عادَ فلاّحاً بحادثة مُضحكة مُبكية: لقد عرَفَ الملكُ ميمونٌ بأمرِه، ورأى أنَ الانشغالَ بالأدبِ من شعرٍ وحكاياتٍ ليس عملاً منتجاً بل تضييعٌ لوقتِ الشعب، فأمرَ الشعراءَ والقصّاصين أن يعملوا بزراعة الليمون. وهكذا عادَ شاعرُنا فلاّحاً في أرضِ أبيه لكنْ بأمرٍ ملَكي.

ماذا فعلَ ذلكَ الأديبُ الفلاّحُ لينقِذَ أشجارَ

الليمونِ في بستانه؟ فكَّرَ وفكَّرَ ثم تذكَّر: في الحربِ يُضحّي بعضُ الناسِ بأنفسهم ليعيشَ الآخرون، فلِمَ لا يضحّي ببعضِ أشجارِ الليمونِ لينقذَ الباقي؟

حملَ بلطتَهُ فوراً ومعَهُ حطَبَةٌ مشتعلةٌ واتجــهَ إلى الأشجار. قطعَ واحدةً ضعيفةً مــصفرّةً ودسَّ تحتَها الحطَبة المشتعلة. وما زالَ ينفخُ وينفخُ حتى أخذت الشجرةُ تشتعل. كانَ اشتعالاً صعباً بطيئــاً لكنّهُ كثيفُ الدُّخانِ وهو المطلوب.. ولفَّ الــدخانُ الدافئُ الأشجارَ يُدفئُها ويحاربُ الصقيع.

استمرَّ صاحبُنا يضحّي بأشجارِهِ ثلاثينَ يومــاً، أحرقَ فيها تسعاً وتسعينَ شجرةً هي كــلّ أشــجارِ بستانه إلاّ شجرة..

وأخيراً رحلَ الصقيعُ واتجــهَ الطقــسُ إلــى التحسّن، وانفردَت في أرضِ البستانِ شجرةُ ليمونٍ ضخمةٌ واحدة، تحملُ ليموناتٍ ثلاثاً كبيرةً خضراءَ مصفرّةً تقاربُ النضوج.

بعدَ شهرٍ من الزمنِ صارتِ الليموناتُ صفراءَ برّاقةً كنجومِ السماء، تتألّقُ فوقَ شجرةٍ حيّةٍ واحدةٍ تعيشُ بفضلِ تسعٍ وتسعينَ شجرةٍ ضحيّةٍ.

وحانَ وقتُ القطافِ وامتدّت أناملُ الفلاّحِ إلى الثمارِ مرتعشةً حنونة. قطفَها ووضعَها في كيسٍ قماشيٍّ صغيرٍ علّقَهُ في حزامه، وانطلقَ نحو قصرِ الليمونةِ في عاصمةِ المملكة، التي تبعُدُ مسيرَ ثلاثةِ أيّام.

×××××

ماذا حدثَ للملكِ خلالَ تلكَ الأزْمةِ العصيبة؟ كانَ فقدُ الليمونِ لديه كفقدِ عقله، فثارَ واهتاجَ واضطربَ اضطراباً عظيماً.. عالجَهُ الأطبّاءُ بسَجنه في غرفةِ نومه أربعةً وأربعينَ يوماً، فاعتادَ فقدَ الليمونِ وعادَ إليهِ توازنه ووعيُه. لكنّهُ أصبح ذابلاً مُنكسراً مُنحَطَّ القوى، ذاهلاً عن كلِّ ما يرى ويسمع، غيرَ مكترثٍ بكلِّ ما يحدثُ مهما كانَ

شأنه. وكانت عيناهُ كشمعتينِ منطفئتينِ إلاّ عنـــدَما يتذكّرُ الليمون، فكانتا تومضانِ وميضاً قلقاً شـــاحباً وتتحرّكانِ حركةً مرتعشة. أمّا جسمُهُ فصَارَ ناحِلاً ضعيفاً كأنه كبر مئةَ عام.

××××

لا أحدَ يعلَمُ كيفَ عرَفَ الملكُ بأمرِ الليموناتِ الثلاث، لكنّهُ عرَفَ على كلِّ حالٍ فالحكّامُ لا تخفى عليهم خافية. لبسَ أفضلَ ثيابـــهِ وصـــارَ حيويّـــاً ممازحاً، يلقي أوامرَهُ يَمنةً ويَسرةً وهو يبتسمُ تارةً ويعبسُ تارة، ويداهُ تفتلان شاربيه بهمّةٍ لا تعـــرفُ الكلَلَ. أمرَ بالاستعدادِ لاستقبالِ الفلاّحِ وليموناتـــه، وتفحّصَ الليمونات الذهبية التـــي ســـتكونُ ثمنـــاً ومكافأة. ثم حملَ عصاً طويلةً من شجرِ الليمـــونِ وسارَ يشرفُ بنفـــسهِ علـــى الزينـــاتِ والفرقـــةِ الموسيقيةِ الملكيّة، ويوزّعُ ابتساماتِهِ وفُكاهاتِهِ على الجميع.

××××

دخلَ الفلاّحُ بعدَ طولِ انتظار. وبعــدَ التحيّــة الليمونيّة الملكيّة. صمتَ لَحظةً فعَمَّ الجميعَ صمتٌ وترقّب ثقيلان، ثمّ شقَّ الصمتَ بثقةٍ وقــوّةٍ وهــو يقول:

–مولايَ الملكَ المعظَّمَ أعطِني الأمان.

أجابَ الملكُ وهو يغالبُ قلقَهُ ويتظاهرُ بالثقــةِ بنفسه:

–لكَ الأمانُ، تكلّمْ، هل حدثَ شيء؟

بلعَ الفلاّحُ ريقَهُ ثم تابعَ والعيونُ تكــادُ تأكلُــهُ بنظراتِ القلقِ والانتظار:

–لقد حملْتُ الليموناتِ الثلاثَ وتوجّهتُ فــوراً إليك، لكنّ أحداثاً جرَت معي في الطريقِ أنقصَتْها ليمونتينِ وأبقت لك ليمونةً واحدة.

سألَ الملكُ مصفرّاً ومختنقاً بالغضب:

–مَن سرَقَ الليمونتينِ حتى أقتلَه؟

قالَ الفلاّح مبتسماً وهادئاً:

–لم يسرقْهما أحد.. والأحداثُ التي جرتْ معي سوفَ تسُرُّ جلالَتك، فاسمحْ لي بسَردِها ثمّ احكُمْ بنفسِك.

خشيَ الملكُ أن يُظهرَ أمامَ الجمعِ لهفةً زائدةً وقلّةَ ثقةٍ بنفسِه، فتظاهرَ بالهدوءِ والبرودةِ وقالَ للفلاّح:

–تكلّمْ ولا تختصِر. أنا أستمِع.

فبدأ الفلاّحُ يحكي فقال:

–اعلَموا يا مولايَ أنّ قريتي بعيدةٌ من هنا مسيرَ ثلاثةِ أيّام. ولقد مشيتُ في البدايةِ يومينِ وليلةً دونَ راحةٍ ولا نوم. ثمّ هدّني التعبُ والنعاسُ فأويتُ إلى بيتٍ في قريةٍ على الطريق. كانَ في البيتِ امرأةٌ فقيرةٌ وزوجُها طريحُ الفراش. كانت

المرأةُ رغمَ الفقرِ كريمةً خيِّرة، أطعمتني عــشاءها وقدّمَت لي فِراشَها ونامَت على الحصير.

وبينما أنا أكادُ أغفو سمعتُ زوجَها يَهذي وهو نائم. اقتربتُ منهُ فوجدْتُه مصاباً بحمّــى شــديدة. عيناهُ تنظُرانِ إليَّ كأنهما جمرتان، وأنفاسُهُ تتلاحقُ مثلَ منفاخِ الحدّادِ وهو يصارعُ الموت. وأنا أعلَــمُ أن الليمونَ دواءٌ للحمّى، فهل أبخلُ عليه بليمونــة وأتركهُ يموت؟ ولو كانَ مولايَ الملكُ مكاني، أمــاً كان يضحّي بليمونة لأجلِ مريض؟

نهزَ الملكُ رأسَهُ إلى الخلف نهزةً سريعةً كأنّما وخزَهُ شيءٌ بين كتفيــه، وأطلَــقَ كلمــةً أرادَهــا واضحةً فخرجت ناشفةً مكتومة:

-طبعاً، طبعاً.

فتابعَ الفلاّح:

-هذا ما قدّرتُهُ وفعلْتُه. ثم نِمتُ حتــى الفجــرِ

ونهضتُ كي أتهيّأُ للمسير. كانت حرارةُ الرجُلِ قد انخفضَتْ وبدأ يستعيدُ وعيَهُ ويتماثلُ للشفاء.

تابعتُ المسيرَ طولَ النهارِ وشعرتُ بعطشٍ شديد. اتجهتُ إلى قرية أعرفُها حقَّ المعرفة، وأعرفُ أنّ فيها بئراً وحيدة وماؤها مُرٌّ كريه، لكنني أقبلتُ أستقي فنادتني امرأةٌ من بيت قريب ودعتني كي أشربَ من عندها. كانَ ماؤها صافياً لذيذاً كأطيبِ ما يكون، وعرفتُ أنها أحضرتهُ من نبعٍ ماءٍ بعيدٍ كما يفعلُ أهلُ تلك القرية. وبينما أنا أسألُها عن الماءِ وتجيبُني اقترَب منّا ولدُها الصغيرُ وبدأ يتشمّم. لقد اجتذبَتهُ رائحةَ الليمونِ فلهُ رائحةٌ فائحةٌ فاضحة. سألَني: ماذا تحملُ في هذا الكيسِ الصغيرِ وما هذه الرائحة؟ ففتحتُ الكيسَ وعرّفتُهُ بثمرةِ الليمون. والأطفال يا مولايَ لا يكتفونَ بالنظرِ إلى الأشياءِ الجديدة عليهم، بل يرغبونَ بالتفحّصِ والتذوّقِ إن أمكن، ودونَ الخِبرةِ

والتجربةِ لا يكتملُ لهم علمٌ ولا معرفــة. تــردّدتُ لحظةً وخِفتُ من غضبِكَ ثــم فكّــرت: ألا يجــودُ مولانا علَى الطفلِ الصغيرِ الجاهل، بليمونةٍ واحدةٍ ولأجل العلمِ والمعرفة؟

انحنى الملكُ إلى الأمامِ فجأةً وانكمَش. تطلّــعَ حولَهُ وخافَ أن يتصرّفَ أيَّ تصرّف يذكّرُ بأيــام اضطرابِه وحبسه، فيشمتَ به الشامتون ويطمعَ به الطامعونَ ويتمادى عليهِ السفهاء، وفضّلَ أن يظهرَ أمامَهم بمظهرِ المتسامحِ الكريمِ والْمُنْعِم المتفضّل، فسعلَ مرتينِ ثلاثاً ثم قال:

–طبعاً، طبعاً.

فقالَ الفلاّح:

–وأنا يا مولايَ قــدّرْتُ إرادتَــكَ الحكيمــة، وضحّيتُ بالنيابةِ عنــكَ بليمونتِــكَ الثانيــةَ فهــل أخطأت؟

قالَ الملكُ غير منتبِهٍ لأنّ عقلَهُ كانَ شارداً من الغضب:

-طبعاً، طبعاً.

وصحّحَ فوراً:

-أقصدُ أنك لم تخطئْ طبعاً. طبعاً لم تخطئ.

أخرجَ الفلاّحُ الليمونةَ الوحيدةَ من كيسِهِ وألقاها في الهواءِ ثم تلقّاها بيدِهِ وقال:

-أمّا هذهِ يا مولاي، فهي هديّةٌ منّي إليك.

جُنّ جنونُ الملكِ من الغيظ. فلاّحٌ يتفضّلُ عليهِ بهديّة، ويساوي في هداياهُ بينَ الملكِ وبينَ فلاّحٍ آخَر وابنِ فلاّحٍ؟! هذه وقاحةٌ ما بعدَها وقاحة، وجريمةٌ ما مثلُها جريمة." فهل يعاقبُهُ فيبدو بخيلاً لئيماً ضعيف الإرادة، أم يفاجئُ الجميعَ بمكافأتِه، فيظهَرَ أمامَهم أسمى من الخطأِ وأكرَمَ من الكرماء؟"

أعجبَهُ الحلّ الثاني، فأمر للفــلاّحِ بالليمونــاتِ الثلاثِ المصنوعةِ من الذهب.

هل يحزرُ القارئُ ما فعل صــاحبُنا بالــذهب؟ استوردَ بهِ أَلفَ غرسَةٍ من أشجارِ التّفاحِ لأنه أحبَّ الفواكِهِ إلى الأطفال.

((ϕ ((

سَمراءُ اليمَن

عاشت في قديمِ الزمانِ وفي بلادِ اليمن، فتـــاةٌ عجيبةٌ اسمُها سَمراء. كانت أعجوبةً في الجمـــال؛ بشَرتها سمراءُ ذهبيّة، وخـــدّاها متـــورّدانِ مثـــلَ رغيفينِ من خُبزِ التنّورِ الناضـــج، أمّـــا عيناهـــا فواسعتانِ برّاقتان، لكنّ أحداً لم يعرفْ لونَهما على الإطلاق، فكلّما نظرَ إليها إنسانٌ أدهشَهُ بريقُهمـــا الغريبُ الوهّاجُ وأذهلَهُ كأنما نظرَ إلى صاعقة.

لم يكنْ جمالُها وحدَهُ أعجوبةَ زمانِها، بل كانت

قصّةُ حياتِها هي الأعجبَ والأغرب. كان أبوها خادماً في القوافلِ التجارية، تدفعُهُ زوجته إلى العملِ والكسبِ دفعاً، فيتحرّكُ بهمّة متراخية وتذمُّرٍ دائم. كان شخصاً كسولاً لا يهتمُّ بشيء. وذاتَ مرّةً ذهبَ مع قافلةٍ ولم يَعدُ، وانقطعَت أخبارُهُ بعدَها ولم يفطَنْ إليهِ أحد.

أمّا الأمُّ فكانت على عكسه قويّةَ الهمّة، واسعةَ التدبيرِ دائمةَ الحركة. لا يراهَا الناسُ إلاّ داخلةً في بيتٍ وخارجةً من آخرَ، وهي تشتري وتبيعُ كلَّ ما يخطرُ على البالِ وما لا يخطر: أمشاطٌ وأساورُ وخواتمُ ومناديل.. ومع تجارتِها الصغيرةِ هذه كانت خطّابةً ماهرة؛ تدبِّرُ خطبةَ أيَّةِ امرأةٍ لأيِّ رجُل. خطّابةً لم تعرفْ اليمنُ أقدرَ منها على إقناعِ المخطوباتِ المتردّداتِ والرافضات، ولا أمهَرَ منها في الحصولِ على المكافآت.

نشأتْ سمراءُ وحيـدةً ومُلازِمـةً[1] لأمِّهـا، فتعلّمَت فنونَ البيعِ والشراءِ والترغيبِ والمساومة. وحينَ بلغَت سنَّ الخامسةَ عشرةَ آنَ أوانُها للخِطبةِ والزواج.

تقدّمَ لخطبتِها رجالٌ كثيرونَ كهـولٌ وشـبّانٌ وفقراءُ وأغنياء، لكنّ الفتاةَ وأمَّها كانتا تسخرانِ من الجميع، وتطمحانِ إلى زواجِ الفتاةِ بأغنى رجُلٍ في كلِّ اليمن.

وذاتَ يومٍ تحقّقَ مَـسعى المـرأتين، إذ تقـدَّمَ لخطبةِ الفتاةِ شيخُ تجّارِ العاصمة صـنعاء. كـانَ عجوزاً تجاوزَ السبعين، تزوّجَ أربعَ نساءٍ وخلّـفَ عشراتِ الأبناءِ والبنات. لكنّه عندَما عـرَفَ أنـه مقبولٌ عندَ سمراءَ طارَ عقلُهُ من الفـرح، فطلَّـقَ جميعَ نسائهِ وابتعدَ عن بناتِهِ وأبنائهِ، وخاضَ مـع

---

(1) *لازَمَهُ: بقي معه لا يفارقه.*

سَمراءَ وأمِّها مساومةً صعبةً دامت شهوراً طويلة: عرضَ عليهما مَهراً مقدارُهُ ألفُ دينــارٍ فرفــضتا رفضاً قاطعاً. وبعدَ مدّةٍ زادَ المهــرَ إلــى عــشرةِ آلاف فقوبِلَ منهما برفضٍ غيرِ حازم. ثمّ زادَهُ إلى مئةِ ألفِ فصارتا تتردّدانِ وتتلاعبان: تَقبَلُ الأولى فترفضُ الثانية، ثمّ تَقبَلُ الثانيةُ فتــرفضُ الأولـــى. واستمرَّ هذا التلاعُبُ عدّةَ أشـــهُرٍ ففقــدَ العجــوزُ صبرَهُ وقرّرَ حسمَ المساومة، وعرضَ مَهراً مقدارُهُ وزنُ الفتاةِ من الذهب. وهنا نالَ الموافقة.

××××

في حفلةِ الزواجِ حضرَ القاضي وكبارُ التجّــارِ والأغنياء، وأُقيمت الزينـــاتُ وســطعَت الأنــوار. وأحضرَ الخدَمُ ميزانَ القوافلِ وهو أكبــرُ ميــزانٍ للتجارة، فوقفت سمراءُ في كفّةٍ منهُ وبدأَ شيخُ التجّارِ يصبُّ الدنانيرَ في الكفّةِ الثانيَةِ، وعنــدَما تــساوَت الكِفّتانِ واعتدلَ الميزانَ، ضُرِبَت الطبولُ ونُفخَ فـــي

الزُمورِ وعمَّ الرقصُ والهياج. وسجَّلَ القاضي عقدَ الزَواجِ بماءِ الذهب، ثم انهمكَ الجميعُ في الطعامِ والشرابِ والرقصِ والغناءِ حتى الصباح.

أفاقوا عصرَ اليومِ التالي وكانت أولى المفاجآت: اكتشفَ الخدَمُ الأمَّ ميتةً في الغرفةِ التي خصَّها بها شيخُ التجّارِ في قصرِه، وقد اختفى من تحتِ سريرِها مَهْرُ ابنتِها من الذهب. كيفَ اختفى وأينَ ومَن الفاعل؟ لم يعرفْ أحد. وأقبلَ شيخُ التجّارِ وعروسُهُ سمراءُ يتصرّفانِ بكلِّ هدوء، وانتقلَت الأمُّ إلى مثواها الأخيرِ في موكبٍ صغيرٍ صامت.

××××

تمضي الأيامُ والشهورِ، وشيخُ التجّارِ يحلُمُ بأن يعيشَ في سعادتِه هذه ألفَ عام. أمّا عروسُهُ فكانت تنتظرُ موتَهُ باليومِ والساعة، كي ترثَ من ثروتِه الهائلةِ حِصّةً ضخمة. وطالَت أحلامُ شيخِ التجّارِ

وطالَ انتظارُ سمراء، وصارَ صــبرُها يتــضاءلُ يوماً بعدَ يوم.

وأخيراً قرّرَت أن تعجِّــلَ النهايــة، فأولَمَــت لأصدقاء زوجِها المقرّبينَ وليمةَ عَــشاء فخمــة، وقدّمَت لَــه الطعامَ والشرابَ بيدِها، واشتركَت مع المغنّيات في الغناء. فجأةً شهقَ العجوزُ ومات دونَ أن يعلَمَ أَحدٌ بالسُمِّ الذي وضعَتهُ خلسَةً في كأسه.

تخلّصت منه دونَ أن يتّهمَها أحدٌ فقد كانَ منذُ سنوات على أعتابِ الموت، وبدَت وفاتُهُ طبيعيّــةً أمامَ أصدقائه.

××××

ثريّةٌ حسناءُ في أوّلِ الــشبابِ فهــل يتركُهــا الطامعون؟

بدأَ التجّارُ يحومونَ حولَها ويتقرّبــونَ إليهــا، لكنّها كانت تحلُمُ حلُماً أبعدَ وتطمحُ طموحاً أعلــى

فأعلى. ولم تمضِ شهورٌ قليلةٌ حتى تزوّجها أميرُ صنعاء، وكان شابّاً طائشاً متهوّراً متفرّداً بحُكمه، لا يتّخذُ وزيراً ولا يشاورُ حكيماً، ولا يحسُبُ للناسِ أيَّ حساب.

أمّا سمراءُ فكانت تشعرُ بالرضى لأنها بلَغَت درَجةً عاليةً في دَرَجِ طموحِها، لكنّها تفكّرُ وتخطِّطُ خططاً خبيثة، كي تصعدَ الدرجةَ الأخيرةَ إلى الذروة، إلى قمّة القمَمِ والمجدِ العظيمِ ولو بأيِّ ثمَن. أن تحكُمَ كلَّ اليمنِ وتكونَ ملِكة.

وكانت تعرفُ أنّها إن دبَّرَت ميتةَ الأميرِ فسوفَ يرتابُ فيها الجميع، ولن تتركَها الأسرةُ المالكةُ في القصرِ لحظةً واحدة. فلجأتْ إلى طريقةٍ مألوفةٍ في قصورِ الحكّامِ المتسلّطين، الذينَ إنْ عجزوا عن الوصولِ إلى الحكمِ بالقوّةِ وصلوا بالوشاياتِ والأكاذيبِ والمؤامراتِ والاغتيالات، فلا تخلو قصورُهم أبداً من اغتيالٍ أو مؤامرة.

بدأت سمراءُ توَسوِسُ لزوجها بالليلِ والنهـــار، وتملأ رأسَهُ بالطمعِ في عرشِ أخيهِ أميرِ تَعزّ. وما كانَ زوجُها بحاجـــةٍ إلـــى كثيـــرٍ مـــن الإغـــراءِ والتحريض، فهو نفسُهُ وأخوهُ وأبـــوهُ مـــن قبلِـــه، نشؤوا وعاشوا في سلسلةٍ من الصراعاتِ الداميـــةِ على المالِ والسُلطة.

وعلى ضفّتي وادي زُبَيد بينَ صنعاءَ وتعـــزّ، حشدَ الأميرانِ جيشيهما، ثم التقيا بسيفيهما، وكانت سمراءُ قد أعدَّت قاتلاً مـــأجوراً ليقـــضي علـــى المنتصرِ منهما.

انتصرَ أميرُ تعزَّ قاتلاً أميرَ صنعاء، فعاجلَـــهُ القاتلُ المأجورُ فقتلَه، فامتـــشقت ســـمراءُ ســـيفَها وصرخَت بالثأرِ من القاتل، فتكاثرَ عليـــه الجنـــودُ ومزّقوه، وبرزَت سمراءُ بينَ الجيشينِ مدافعةً عن الحقِّ والعدالة وأعلنت نفـــسَها وريثـــةً للعَرشَـــينِ وملِكةً على عُمومِ اليمن.

××××

حكمَت سمراءُ اليمنَ خمسَ سنوات. ملكةً مُطاعةً مطلَقَةَ السُلطة، لا يعارضُها أحدٌ ولا ينازعُها العرشَ أحد. لكنّها تعاني مشكلةً في نفسِها جعلَتْها دائمةَ الصمتِ والقلق.

كانت كلّما مرَّ عليها يومٌ جديدٌ زادَ شكُّها فيمَن حولَها وخوفُها من الاغتيال. ويوماً بعدَ يوم، أخذت تبتعدُ عن رجالِ القصرِ وقادةِ الجيش، وتبدّلُ خدَمَها باستمرار.

كلّ تدبيراتِها لم تحملْ إليها الطمأنينةَ وراحةَ البال، صارَت عصبيّتُها تزدادُ يوماً بعدَ يوم، وشهيّتُها للطعامِ تضعُف، وجسمُها يَهزُلُ وتتلاشى قواه، حتى صارت جِلداً على عظمٍ وهيكلاً عصبيّاً نحيلاً دائمَ الارتعاش. أمّا عيناها البرّاقتانَ الأعجوبتان، اللتانِ دوّختَا كبارَ قومِها وأوصلَتاها إلى قِمّةِ الشهرة، فقد غارتا في مِحجَريهِما، واستقرَّ

فيهما بريقُ الرعبِ والجنونِ بعدَ بريــقِ الروعــةِ والجمال.

كان آخرَ تدبيرٍ أوحى به خوفُها من الاغتيال، أن ربَّت مجموعةً من أشبالِ النُمورِ فــي غُرفــةِ نومِها وقاعةِ العرش. صنعَتْ لها أقفاصاً مَطليّــةً بالذهب، وصارت تطعمُها بيدها وتداعبُها وتتحبَّبُ إليها، حتى اعتادَت عليها النمورُ وصارت تــسرحُ في قاعاتِ القصرِ كالقطَطِ الأليفة. وكانت تحبِــسها في النهارِ وتُطلقُها في الليلِ بعــدَ أن تتأكّــدَ مــن إغلاقِ أبوابِ القصرِ الخارجيّةِ والداخليّــةِ كلِّهــا. عندَها فقط كانت تأمَنُ وتنام.

××××

في ليلةٍ من ليالي الشتاءِ كانت نهايةُ سَــمراءِ اليمَن. كانتِ السماءُ تتمــزّقُ بــالبُروقِ والأرضُ تتزلزلُ بالرُعودِ والأشجارُ تتقصَّفُ بالعاصفة. أمّا الأمطارُ القارسةُ البَرْدِ فكانت تنصبُّ غزيرةً ثقيلةً

صاخبة.

في تلكَ الليلة أثناءَ العاصفة، ضحكَت سمراءُ أوّل مرّة منذُ تولّت عشرَ اليمن. قَفزَت من سريرِها وهي تقهقه، وبدأت تفتحُ نوافذَ القصر وأبوابَهُ وتُطلِقُ النمورَ من أقفاصها وهي مستمرةٌ في القهقهة.. ثم خرجَت من القصر في ثيابِ النومِ الرقيقة، وأخذت تجري في سواد الليلِ وسطَ عناصرِ العاصفة.. تتعثّر وتتخبَطُ وتسقطُ ثم تنهض.. يُبهرُها البرقُ تارةً وتارةً يُعميها الظلام.. حتى سقطت أخيراً ونامت نومَةَ الأبَد. لقد أرادَت المجدَ بأيِّ ثمن، فكان الثمنُ ضحاياها في البداية، ثم سعادتَها وروحها ذاتها.

((قبائل الزولو))

((قصة خياليّةٌ مستوحاةٌ من تاريخِ جَنوب أفريقيا، تبدأ أحداثها في القرن السابع عشر وتنتهي في القرن العشرين))

××××

في مملكة البيضِ قالَ وزيرُ المستعمَراتِ لمَلِكه: في جَنوبِ أفريقيا شعبٌ من القبائلِ المتَوحشةِ اسمُهُ الزولو، يعيشُ بين الأدغالَ في مجموعاتٍ صغيرةٍ تتغذّى بالصيدِ والتقاطِ الثمار.

ملابسُهم قطعٌ من جلدِ الحيوانِ يربطونها على خصورِهم، أمّا سلاحُهم فهو الهِراواتُ[1] والرماحُ الخشبيةُ الخاليةُ من حِرابِ الحديد.

أمرَ الملكُ الأبيضُ قائدَ جيوشه: جهّزْ جيشاً ضخماً قويّاً واذهبْ لاحتلالِ بلادِ زولو، خلِّصْهم من حياتِهم المتوحشةِ وانقلْهم إلى المدنيةِ والحضارة.

سألَ قائدُ الجيوشِ بغَباء: وهل نحنُ المتحضّرينَ مسؤولونَ عن تطويرِ الشعوبِ المتوحشة؟

أجابَ وزيرُ المستعمَرات: هذا أكيد؛ ففي أرضِ زولو غاباتٌ كثيفةٌ يجبُ استثمارُ أخشابِها، ومياهٌ غزيرةٌ تفيدُنا في أوسعِ زراعة، وحيواناتٌ برّيةٌ رائعةٌ تناسبُ هُواةَ الصيدِ من شعبِنا، وتمكّننا

---

[1] *الهِراوة هي العصا الغليظة.*

من إنشاءِ حدائقِ الحيوان.. أمّا الذهبُ فـــي أرضِ زولو، فهو منتشرٌ على وجهِ الأرضِ وفي مجاري السُيولِ وضفافِ الأنهار، وهو كثيــرٌ أكثــرُ مــن التراب.

قالَ قائدُ الجيوشِ للملكِ فوراً: أمرُ مولاي.

××××

جنّدَ البِيضُ جيشاً ضخماً من أبنـــاءِ المملكـــةِ البيضاءِ المتحدة، ومن أبناءِ مستعمراتِها الواسعة، في أفريقيا وآسيا وأمريكا. وفي الوقتِ نفسه وفـــي المملكة الشقراء جرى حوارٌ كـــالحوارِ الَـــسابق، وصَدَرَ الأمرُ العسكريُّ نفسُه، وجنّدَ قائدُ جيـــوشِ الشُقرِ جيشاً ضخماً من أبناءِ مستعمراتِهم الواقعـــةِ في أفريقيا وآسيا وأمريكا. ومن بعضِ المرتزَقـــةِ والمغامرين، الذين سنعتبرُهم مـــن الـــشُقرِ نظـــراً لتبعيّتِهم لهم وقلّةِ عددِهم.

××××

هاجمَ البِيضُ بعضَ قبائلِ الزولو من السواحلِ الغربيةِ بالمدافعِ والرشّاشاتِ والبنادق. وهاجمَ الشُقْرُ قبائلَ أخرى من السواحلِ الشرقية، وبالمدافعِ والرشّاشاتِ والبنادقِ أيضاً.

قتلَ البيضُ ألوفاً من الزولو، وقتلَ الشُقْرُ عشراتِ الألوف. ودافعَ الزولو عن أنفسِهم بكلِّ شجاعة، وقتلوا مئاتِ المعتدينَ وجرحوا الآلاف، رغمَ أنّ سلاحَهم كانَ الرماحَ الخشبيةَ والهِراوات.

قليلٌ من قتلى المعتدينَ كانوا من البِيض أو الشُقرِ ومعظمُهم كانوا من جنودِ المستعمرات.

قالَ قائدُ الجيشِ الأبيض بعدَ المعركة: ادفنوا جُثثَ الغرباءِ كي لا تسبِّبَ الأمراض. فدفنَ البِيضُ جثثَ جنودِ مستعمَراتِهم مع جثثِ الزولو في حُفرٍ جماعيّةٍ كبيرة.. وكذلك فعلَ الشُقْرُ بجثثِ جنودِ

مستعمراتِهم وجثثِ الزولو.

أمّا القتلى البِيضُ فتمَّ دفنُهم في احتفالٍ عسكريٍّ بمَهابةٍ وإجلال، وكانَ البِيضُ يردِّدونَ في الاحتفالِ: لأجلِ الله والملِك. والمجدُ لشهداءِ الوطن.

وكذلك حدثَ في دفنِ القتلى الشُقْرِ أيضاً..

××××

وصلَت أنباءُ القتلى البِيض إلى الوطن، فأقيمَت على أرواحِهم صلَواتُ الحزنِ والإجلال. ومع الصلَواتِ ردّدَ المصلّونَ وأهالي القتلى: لأجلِ الله والملِك. والمجدُ لشهداءِ الوطن. وكان أطفالُ المملكةَ البيضاء يردّدونَ الهُتافاتِ نفسَها في المدارس.

كذلك كان أطفال المملكة الشقراء يردّدونَ في المدارس، وأهلُ القتلى يردّدونَ في الكنائس: لأجلِ الله والملِك، والمجدُ لشهداءِ الوطن.

××××

كانَ البيضُ قد أسَروا ألوفاً من الزولو أطفالاً وفتياناً وفتيات. وكانَ الشُقْرُ قد أسَروا عشراتِ الألوف.

باعَ الضباطُ البيضُ أسراهم لتجّارِ العبيد. وكذلك فعلَ الضباطُ الشُقْرُ. وشَحنَ أولئكَ التجّارُ الأطفالَ والفتيانَ والفتياتِ في سفنٍ قذرة ضيّقة حقيرة، وباعوهم عبيداً في الولاياتِ المتحدةِ الأميركية.

××××

في الأراضي الواسعةِ التي احتلها البيضُ وأبادوا سكّانها، أقاموا عشراتِ المستوطَنات وملَؤوها بالمستوطِنينَ البِيض، ولا سيّما تجّارَ الخشبِ والجلود، وعمّالَ المناجمِ وتجّارَ الذهب.

وفي الأراضي الواسعةِ التي احتلها الشُقْرُ

وأبادوا سكّانَها، أقاموا عشَرات المستوطَنات وملَؤوها بالمستوطِنينَ الشُقْر، ولاَ سيّما تجّارَ الخشبِ والجلود، وعمّالَ المناجمِ وتجّارَ الذهب.

أمّا قبائلُ الزولو التي نجَت من القتلِ والأسر، فابتعدَت قَدْرَ استطاعتها عن المستعمراتِ والجيوشِ البيضاءِ والشقراء، واستقرَّت في أراضٍ جديدة قليلةِ الأنهارِ والأشجارِ والثمار، وبدأت تبني أكواخَها وتستمرُّ في الحياة.

××××

قال وزيرُ المستعمرات الأبيضُ لملكه: الشُقْرُ استعمروا من أرضِ زولو أغناها بالذهب وهذا ليس عدلاً. فقالَ الملكُ فوراً: هذا ليس عدلاً. نحن أقوى من الشُقْرِ وأحقُّ منهم بأغنى المستعمَرات. وأمرَ وزيرُ المستعمراتِ الأبيضُ قائدَ جيوشِه: حارِبوا الشُقْر في أرضِ زولو، حرِّروها من هؤلاءِ المستعمرِين، وأخرجوهم منها جميعاً وإلى

الأبد.. وإلاّ فأنت تعرفُ كيف أعاقبُك.

وفي المملكة الشقراء قالَ وزيرُ المستعمَرات لقائد الجيوش بعدَ أمرِ الملك: حرّروا بلادَ زولو من المستعمرينَ الدُخَلاء. حاربوا البيضَ وأخرِجوهم من جَنوبِ أفريقيا كلِّها وإلى الأبد. وإن بقيَ فيها أبيضُ واحد، فسوف أعزِلُك من وظيفتكَ وأجرّدُك من أملاكك الواقعة هنا وفي كلِّ المستعمرات، وأُصادِرُ كلَّ أموالِكَ وأُعدمُكَ بِجُرمِ الخيانة.

في مستعمَرات جَنوبِ أفريقيا هجمت جيوشُ المملكة البيضاءِ على جيوشِ المملكة الشقراءِ والعكسُ بالعكس، وكان الجميعُ يهتفونَ كَلٌّ لمَلِكِه ووطنِه: لأجل الله والملك. عاشَ الوطن، والموتُ للمستعمِرينَ الدخلاء.

وفي المملكة البيضاءِ هتفَ الأطفالُ في المدارس: عاشَ الوطن، عاشَ الوطن، والموتُ

للشُقرِ الأعداء.. كذلك في المملكة الشقراء، هتفَ الأطفالُ في المدارسِ بحياةِ الوطن، وبالموتِ للبِيضِ الأعداء.

××××

استمرّت الحربُ الطاحنةُ سنواتٍ وسنوات. وعجزَ كلٌّ من الجيشينِ المستعمِرينِ عن قهرِ الآخر، فلجأ البِيضُ إلى التحالُفِ مع بعضِ زعماءِ زولو على الشُقْر، ووعدوهم بالحرية، وبجلاءِ كلِّ الجيوشِ الأجنبيةِ عن أرضهِم بعد النصر.

كذلك فعلَ الشُقْرُ مع زعماءَ من الزولو آخرين.

وكان زعماءُ الزولو يقبلونَ هذه التحالفاتِ لأنهم أذكياء؛ وكلّ منهم كان يسعى إلى التخلّصِ من أحدِ الجيشينِ الأجنبيين، ليَسهُلَ عليه طردُ الجيشِ الآخَر.

جنودُ المستعمِرينَ كانوا يهتفــونَ فــي تلــك المعارِك كلٌّ لملِكِه: لأجلِ اللهِ والملــك، والحريــةِ لشعبِ زولو.

وفي مدارسِ المملكتينِ كان الأطفال يردّدون: الحريةُ لشعبِ زولو، والموت للمستعمِرين.

لكنّ قتلى الزولو وأسراهم والمستعبَدونَ مــنهم كانوا يتزايدون، وأرضُهم تــستمرُّ فــي التمــزّقِ والوقوعِ تحت سيطرةِ الجيشينِ المتحارِبَين.

××××

بعدَ سنواتٍ وسنواتٍ من الحربِ بينَ الجيشينِ المصمّمَينَ علىً تحريرِ شعبِ زولو من الاستعمار، قالَ وزيرُ المستعمراتِ الأبــيض الجديــدُ لملكــه الجديد: حربُنا في جَنوبِ أفريقيا أصبحَت خاسرة؛ فهي تكلّفُنا نفقاتٍ تزيدُ عن أثمــانِ الــذهبِ الــذي نستخرجُهُ من مناجمِها والخشبِ الذي نقطعُه مــن

غاباتها.

أجابَ الملكُ الأبيضُ الجديدُ ولم يكن يريــدُ أن يبدأ حكمَهُ بالخسائر: أوقفوا هذه الحرب.

وقالَ الملكُ الأشقرُ آنذاكَ لوزيرِ مــستعمراته: أوقفوا هذه الحربَ، والصلحُ سيّدُ الأحكام.

××××

بعدَ أشهُرٍ طويلة من المفاوضات والمساومات، بين وزيرِ المستعمراتِ الأبيض ومَثيلِــه الأشــقر، وعلى سفينةٍ في البحرِ بين المملكتينِ الأوروبيّتــينِ الجارتين، خرجَ الوزيرانِ من غرفةِ المفاوضــاتِ مبتسمَين، وتصافحا أمامَ الصحفيينَ والمــصوّرين، وأعلنا الصلحَ واتفاقَ السلام.

وعلى الحدودِ بين الجيشينِ المــستعمرينِ فــي أرضِ زولو، وقفَ القائدانِ الأبــيض والأشــقر، يعلِنانِ اتفاقَ السلام، والتزامَ كــلٍ منهمــا بعــدَمِ

الاعتداءِ على مستعمرات الآخَر، مـــع حقِّـــهِ فـــي التوسّعِ في غيرِها من الأَراضي الأفريقية.

هتفَ الجنودُ البيضُ: عاشت صداقةُ البيض والشُقرِ، عاشَ السلام. وهتفَ الجنودُ الشُقْرُ: عاشت صداقةُ الشُقرِ والبيضِ، عاشَ السلام.

وعلى الفَورِ هجمَ كلٌّ مـــن الجيـــشينِ علـــى أراضي الزولو غيرِ المستعمَرة، واســـتمرَّ يوسّـــعُ أراضيَهُ المستعمَرة ومستوطناته.

واستمرّ أطفال المملكتينِ المستعمرتَينِ يردّدونَ في المدارس: عاشت صداقةُ الشعوبِ الحرّة. عاشَ السلام.

واستمرَّ الزولو في خَـــسارةِ النـــاسِ والأرضِ والحرية، لكنّهم ربحوا من هذه الأحـــداثِ درســـاً مُفيداً: إذ أدركوا أنَ المستعمِرينَ ضدَّهم إذَا اختلفوا وضدَّهم إذا اتفقوا أيضاً.

××××

بعدَ سنوات قليلة، اتّحدَ البيضُ والشُقْرُ في أرض زولو، في دولة سمَّوها (اتحاد جَنوب أفريقيا)، وكان دُستورُها قائماً على أفضليّةَ المستعمرينَ البيضِ على أهلَ البلادِ السود، وهو ما يُسمّى نظامَ التمييزِ العنصري. وصارَ المستعمرونَ يعلّمونَ أبناءَ الزولو مختلَفَ العلوم، واستخدموهم في أعمالِ الزراعةِ المتطوّرةِ والصناعاتِ الحديثة، وفي خدَماتِ النقلِ البرّيِّ والبحريّ وفي البريدِ والهاتف.

استوعبَ الزولو كلّ تلكَ العلومِ والمهارات، وصاروا يقرؤون ويتثقّفون، وتطوّرَ وعيُهم فأنشؤوا الأحزابَ التحرّرية، وفصائلَ المقاومةِ المسلَّحة، وما زالوا يكافحونَ حتى انتصروا وأقاموا دولةً غيرَ عنصريّة متساويةَ الحقوقِ لكلِّ سكّانها بِيضاً وشُقراً وسوداً. السُودُ فيها هم

الأكثريةُ أمّا البِيضُ فهــم الأقلّيّــة، لكــنّ الــسودَ أصحابَ البلادِ الأصــليينَ فقــدوا حقَّهــم بإعــادةِ المستعمرينَ إلَى بلادِهم أوروبــا، لأنهــم وُلِــدوا وعاشوا هم وآباؤهم وأجدادُهم في جَنوبِ أفريقيــا من ثلاثةِ قرون..

شَعبُ زولو يُدرِكُ اليوم، أنّ خَــسارةَ الــزمنِ خَسارةٌ في النصرِ أيَضاً، وانتقاصٌ من الحريّة.

الطفلُ العجوز

هل يوجدُ في الدنيا كلِّها طفلٌ عجوز؟

يوجَدُ، وقد رأيتُهُ وعشتُ قريباً منهُ بضعَ سنوات، وسأحكي لكم حكايتَه.

××××

ذاتَ مرّة، دخلتُ إلى دكّانٍ في حيِّنا نسمّيه المكتبة. كان يبيعُ خليطاً من اللوازمِ المدرسيةِ والكتبِ والصحفِ والمجلاّتِ للأطفالِ والكبار، مع

ما يشتهيه الأطفالُ من سكاكرَ ومقبّلات ومثلّجات..
دخلتُ الدكّانَ المكتبةَ لأشتري مجلّةً للأطفال تعوّدتُ عليها. كان البائعُ جالساً وليس واقفاً كالعادة، وعندَهُ زَبونٌ واحدٌ هو رجلٌ نسمّيه "الطفلَ العجوزَ" يتصفّحُ تلك المجلّة. طلبتُ من البائعِ نسخةً منها فوقف يعتذرُ ويعبّرُ عن أسفِه؛ كانت تلك النسخةَ الوحيدةَ المتبقّية.

عاتبتُ البائعَ قائلاً:

ــ أنا أشتريها دائماً وأوصيكَ بها.

ــ معكَ حقٌّ لكنّي نسِيت.

قلتُ وأنا أسير لأخرج:

ــ لا تنسَني مرّةً ثانية.

ــ على عيني ورأسي، يا شيخَ الشباب.

هكذا أجابني البائعُ وهو يجلس. وسمِعتُ صوتَ الطفلِ العجوزِ يناديني بأسلوب الأولاد:

ــ تعالَ لا تذهب. تعالَ خذْها.

أجبتُهُ وأنا عائدٌ بخجلٍ وارتباك:

ــ لكنّكَ أخذتَها قبلي.

ــ تعالَ، هيّا. سأدبِّرُ غيرَها من السوق.

ــ شكراً يا عمّ.

ودفعتُ للبائعِ ثمنَ المجلّةِ وخرجتُ مسرعاً ملهوفاً، أبحثُ عن أحدٍ من رفاقي لأنقلَ له النبأَ الخارقَ للعادة: لقد كلّمتُ الطفلَ العجوزَ وكلّمَني أيضاً.. عقلُهُ يشبهُ تماماً عقلَ الكبارِ.

في اليومِ التالي، وحين نقلتُ النبأ لرفاقي في المدرسةِ سَخِروا منّي جميعاً يقولونَ بأصواتٍ مختلطة:

ــ أَلأنهُ فضّلَكَ على نفسِهِ في شراءِ المجلّة؟

ــ الأولادُ المهذَّبونَ يفعلونَ ذلك أيضاً.

ــ يعني أنهُ ولد.

ـ طفلٌ عجوز.

××××××××

منذُ سنوات بدأنا نراهُ في حيِّنا، وبعدَها اكتشفنا أنه هو الذي ابتنى تلك الدارَ الصغيرةَ ذاتَ الحديقة، الواقعةَ في أقصى بيوتِ الحيِّ منعزلةً عنها ومتّصلةً بالبريّة.

رجلٌ كبيرُ السنِّ أشيَبُ الشعرِ أنيقُ الثياب، يمشي لطيفاً هادئاً ويتلفّتُ في مشيِه كالأطفال. لم يكنْ يلتفتُ إلى الناسِ ولا إلى السيارات، بل يتأمّلُ الأشجارَ والعصافيرَ العابرةَ وواجهاتِ الدكاكين. كان بملامحِ وجههِ المُنَمنَمة، وجبهتِه العريضة الصافية، وابتسامته التي لا تفارقُ وجهَه، كانَ كالطفلِ تماماً ولكنّهُ عجوز. لحيتُهُ الشائبةُ القصيرةُ التي تكسو أسفلَ ذقنه، لم تكنْ تزيدُهُ كبراً ولا هَيبةً بل طفولة. كانَ كلّما رأيناه يثيرُ دهشَتَنا وفُضولَنا وتساؤلاتِنا الكثيرة.

كانت حديقة حيّنا مكانَهُ المفضّل، وهي حديقةٌ فوضويّةٌ بائسة، أنشأتها البلديّةُ من بقايا بستانٍ قديم. كان مَقعدُهُ المفضّلُ فيها تحتَ شجرةٍ ضخمةٍ غريبةٍ تنتجُ ثماراً كالتينِ لا تنضجُ ولا تؤكل، والشجرة لا تخلو من الغِربانِ فكنّا نسمّيها "شجرةَ القاق".

ولعلّهُ اختارَ الجلوسَ تحتَها لأنّ الناسَ كانت تتجنّبُها ابتعاداً عن الغربان. كان يجلسُ هناك ساعاتٍ طويلة، يتأمّلُ الحديقةَ بدهشته وابتسامته الدائمتينِ كأنهُ يراها أوّل مرّة، وبين يَديه صحيفةٌ أو مجلّةٌ أو كتاب، يقرأُ حيناً ويتأمّلُ ما حولَهُ حيناً آخَر. أمّا عندما يرى أولادَ الحيّ قادمينِ صاخبين، فكان يغلقُ ما يقرأُهُ وينهضُ مبتعداً بهدوءٍ وعلى وجهِهِ ابتسامةُ الرِضى التي لا تفارقُه.

كنتُ ورفاقي نراهُ أحياناً في مكتبةِ الحيِّ حين ننصرفُ من المدرسة. حينَ ندخلُ تلك الدكانَ

الصغيرةَ المحشوّةَ حشواً بـ "كلِّ شيء"، كانَ الطفلُ العجوزُ يخرجُ إلى الرصيفِ مؤجِّلاً دَورَهُ في شراءِ طلبِه، وينتظرُ خروجَنا متأمّلاً معروضاتِ واجهةِ المكتبة، فنُقيمُ الدكّانَ ونُقعدُها بصخبِنا وتزاحُمِنا وطلباتِنا المتلاحقة، نفعلُ ذلك بكلِّ حريّةٍ لا نحرجُ أحداً ولا يُحرجُنا أحد.

لكننا بعدَ الخروجِ من المكتبة، كنّا نحاولُ أن نبقى قربَها لنعرفَ ما سوف يشتريهِ الطفلُ العجوز. لقد تعوّدْنا رؤيتَه وقد اشترى مجلّةً أو قصّةً للأطفال. المثيرُ لفضولِنا في هذا الشأنِ أنّ هذا الرجُلَ بلا زوجةٍ ولا أولاد. ولم نكنْ نظنُّ أقلَّ الظنِّ بأنه يشتري مطبوعاتِ الأطفالِ هذه، كي يهديَها إلى بعضِ الصغارِ من معارفِه أو أقاربِه، لأننا كنّا نراهُ طفلاً ونعتقدُ أنه سينفردُ بها في بيتِه المليءِ بالأسرار، ثم يعكفُ على قراءتِها طيلةَ الليل..

بعضُنا كان يظنّهُ مجنوناً. وبعضُنا الآخَرُ كانَ يظنّهُ متخلّفَ العقلِ، كبُرَ جسمُهُ وشاخَ لكنّ عقلَــهُ بقي كما كان منذ الطفولة، وكان بعضُنا يردُّ علــى هذا الرأيِ بالقول: لو كان كذلك، لكانَ عقلُهُ وحدَهُ بقيَ صغيراً، لكنْ انظروا إلى ملامحِ وجهِه؛ إنّهــا ملامحُ طفلٍ صغيرٍ!! وهكذا بقيَ عجوزنا سرّاً من الأسرارِ مستعصياً على فهمِنــا وتفــسيرِنا، فكنّــا نتحاشى الاقترابَ منــهُ أو محادثتَــه. وبــصراحةٍ أكثر: كنا نشعرُ نحوَهُ بشيءٍ من الحذرِ والرَيبة.

××××××××××

بعدَ سنتينِ من حادثتي معه في المكتبةِ وتفضُّلُهُ عليَّ بمجلّةِ الأطفال، كنتُ في الصفِّ السادسِ وفي أواخرِ السنةِ الدراسية. خرجْنا من المدرسةِ غيــرَ متزاحمين، فقد كبرنا وصرنا نعتبرُ أنفسَنا رِجــالاً ولا يليقُ بنا التزاحمُ. وكالعــادة دونَ أن نقــصِد، نظرْنا نحو بيتِ الطفلِ العجوز الذي يظهــرُ فــي

آخرِ الشارعِ وآخرِ الحيّ. كانَ على البابِ نعــشٌ وبضعةُ رجالٍ بين واقفٍ وجالس.

تبادلْنا النظرَ دونَ كلام، وسارَ معظمُنا نحــو المكانِ ببطءٍ وتردّد في البداية، ثم بعزمٍ وتــصميم. خلالَ مسيرِنا سمِعْنا صوتَ المؤذّنِ يقرعُ فــضاءَ الحيِّ:

ــ يا إخوان، أخوكم "سعيدُ السعيد" توفّي إلــى رحمةِ الله.

تجمّدْنا من المفاجأة؛ سعيدُ السعيد؟! إنه كاتبُنــا المفضّلُ الذي نقرأُ لــه في مجلّــةِ الأطفــال، ولا يخلو بيتُ أيٍّ منا من أحدِ كتبِه.. كاتبُنا الذي اشتهرَ بينَنا بحكاياتِه المبتكرةِ الرائعــةِ وشــعرِه الرقيــقِ العاطفيِّ الجميل.. ووجدْنا أنفسَنا يقــولُ بعــضُنا لبعض: أسرعوا أسرعوا.

كان المؤذّنُ قد انتهى من إعلامِ أهــلِ الحــيّ،

وقد خـــرجَ بعـــضُهم مـــن دكـــاكينهِم وبيـــوتِهم يستوضحونَ النبأ، وبدؤوا يعودون إلـــى البيـــوتِ والدكاكينِ متراخينَ غيرَ مبالين؛ كانوا لا يعرفـــونَ المتوفّى معرفةً وثيقة، ولا يكادُ بعـــضُهم يعـــرفُ بعضاً في هذا الحيِّ البائسِ المبنيِّ كيفما كان فـــي طرف المدينة، الذي تجمّعَ فيه أفقرُ فقرائها كيفمـــا كان أَيضاً.. وكنت ورفاقي نشَدُّ السيرَ نحوَ بيـــتِ المرحوم.

كانت المسافةُ قريبةً لكنّ لهفتَنا جعلَتنا نحـــسّها بعيدة.

وكانت عزيمتُنا شديدةً لكـــنّ رهبـــةَ المـــوت قصّرَتْ خطواتنا وكبحَتْنـــا كمـــا تكـــبحُ الفَرامـــلُ السيّارة. ولأوّلِ مرّةٍ في حياتي عرفتُ كيفَ يكونُ المكانُ قريباً وبعيداً في الوقتِ نفسه، وكيف يكونُ الزمانُ قصيراً وطويلاً في الوقتِ نفسِه.

أخيراً وصلنا إلى بيتِه، فأسرعَ أحـــدُ الرجـــالِ

يطردُنا بمَلَلٍ ودونَ اكتراث:

ــ ماذا تفعلونَ هنا؟ يوجدُ ميّت.

أجبتُهُ بشيءٍ من الشجاعة:

ــ أنا سأبقى، وسأحضُرُ دفنَ الأستاذ.

أجابَ الرجُلُ باستنكارٍ وعدمِ احترام:

ــ من أينَ لـــه الأستَذة؟! هذا أبو الأولاد.

أجبتُ منزعجاً ومصحّحاً:

ــ ليس لـــه أولاد.

فقال الرجُلُ بلهجةٍ عدائيّة:

ــ نحن نسمّيه "أبو الأولاد" لأنه يكتـــبُ فـــي مجلّةِ الأولاد. هل فهمتَ أم أعيدُ عليك؟

نظرتُ إلى رفاقي أستنجدُ بهم على هذا الرجلِ العديمِ العقلِ والعاطفة، والذي جاءَ بنفـــسه ليأخـــذَ المرحومَ إلى مثواهُ الأخيرَ وهو لا يحترمُه. ولـــم يمهلْني الرجلُ كثيراً بل عاجلَني هو ورجلٌ آخـــرُ

بجانبه:

ــ روحوا يا أولاد، روحــوا. المــوتُ لــيس فُرجة.

لكنّ واحداً من رفاقي كانَ خلالَ هذه المجادَلة ينظرُ من النافذةِ إلى داخلِ البيت، ويهتــفُ بنــا: تعالَوا تفرّجوا.

أسرعْنا كلّنا وتجمّعْنا على نافذتي الغرفة ننظرُ إلى الداخل. لم تكنْ تلك الغرفةَ التي وضعوا فيهــا المرحومَ بل غرفةُ مكتبتِه. كانــت كــلّ جــدرانِها وأرضِها مغطّاةً بالكتبِ والمجلاّتِ والصحف، بين قديمٍ وجديدٍ وسميكٍ ورقيــقٍ وعربــيٍّ وأجنبــيّ. وسمِعْتُ الرجُلَ الرديءَ يصيحُ من ورائنا:

ــ روحوا خلّصونا. الموتُ ليس فُرجةً، أفّ!!

رُحنا إلى الحيّ، وبعدَ ساعةٍ كنّا قــد اخبرْنــا

جميعً رفاقِنا وأهلَنا، وكنّـــا جميعـــاً حـــولَ قبـــرِ المرحوم. حين أودعوهُ الثرى بكينا بدموعٍ غزيرة، وحين انتهَوا من إهالةِ التراب عليهِ نثرنـــا علـــى تُربتِه الآسَ والزهور. إنه طفلُنـــا العزيـــزُ علـــى قلوبِنا، طفلُنا العجوزُ الغريبُ الطِباع، الذي لا نريدُ لذكراهُ أن تشيخ.

الجزء الثاني:

ثلاثيّة القامشلي

ملاحظات وتعريفات

١. **الحكايات** التالية حدثت في الحقيقة، ونقدّمها مع تغيير الأسماء وبعض التفصيلات، كي لا تكونَ فضائح شخصية بل قصصاً واقعية.

٢. **الجزيرة** هي السهول الواقعة في شمال شرقي سورية، سمّيت كذلك لوقوعِها بين نهري دجلة والفرات.

٣. **القامشلي:** أشهر مدينة سورية على الحدود التركيّة في شمال الجزيرة، وهي تابعة

لمحافظة الحسكة التي تبعد عنها حوالي تسعين كيلو متراً إلى الجنوب.

٤. **جَغجَغ:** نهر من فرعين كبيرين كان يمرّ في منتصف مدينة القامشلي، وهو واحد من مجموعة أنهار تنبع من جنوب تركيا وتنتهي في شمال سورية، وقد قامت السلطات التركية بقطعها تدريجياً بدءاً من ستينيات القرن العشرين، وأهم هذه الأنهار: قُوَيق (حلب)، الخابور (الحسكة)، الجرّاح، خُنيز، جَغجَغ (القامشلي).

٥. **الدَرَك:** شرطة القرى. ويكونون غالباً خيّالة.

٦. **سجن القامشلي:** أنشأته سلطات الاحتلال الفرنسي في عهدِها وسط البلدة، ويضمّ سجناً ومخفراً للدرك، ومهاجع لنومِهم واصطبلات لخيولهم.. ويتميّز بحجارتِه السوداء النادرة الوجود في كافة مدن الجزيرة.

**

طيور الربيع

سامرٌ هو بطلُ هذه الحكاية. أبوهُ تاجرٌ حلبـــيٌ دائمُ السفرِ إلى الجزيرة، يسكنُ وأسرتُهُ في حلب، لكنّهُ لا يستقرُّ في البيتِ شهراً واحداً فـــي الـــسنةِ كلّها.

أمّا حكايتُنا فتبدأُ في حلبَ عامَ ألف وتـــسعمئةٍ وخمسةٍ وخمسين، وتنتهي في القامشليِ بعدَ خمسِ سنواتٍ.

بلغَ سامرٌ السادسةَ من عمرهِ فقالت أمّهُ لأبيه:

ــ هذا الولدُ شديدُ الذكاء، فهو يحفظُ القــرآنَ الكريمَ من فمي عندَما أصلّي، لِمَ لا تــسجِّلُهُ مــن الآنَ في المدرسة؟

قالَ أبوه:

ــ لا يقبلونَه قبلَ أن يبلغَ السابعة[1]

فاقترحَ ابنهما الأكبر تسجيلَ سامرٍ في مدرسة خاصّة لأنّ المدارسَ الخاصّةَ كانت تتــساهلُ فــي هذا الشأنِ بسنة واحدة.

أخذَهُ أبوهُ إلى مدرسة خاصّة قريبة من البيــت وسجّلَهُ في الصفِّ الأول. كانت المدرسةُ قد فتحَت أبوابَها منذ مدّة، وكان التلاميــذُ منتظِمــينَ فــي الدراسة.

دخلَ سامرٌ غرفةَ الصفِّ فأجلسَهُ المعلّمُ فــي المقعدِ الأخيرِ حيثُ المكانُ الوحيدُ الفارغ.

---

[1] *هكذا كان نظامُ التعليم الابتدائي في تلك الأيام في بلادنا.*

قرأَ المعلّمُ التفقّدَ ثم استدعى ثلاثةً من التلاميذِ وسأل:

ــ لماذا هربتم أمسِ من المدرسةِ في الــدرسِ الأخير؟

قال أحدُ الثلاثة:

ــ لم نكتبْ جزاءَ درسِ القــراءة، وخِفنــا أن تضربَنا.

قالَ المعلّمُ بلهجةٍ عاديّةٍ ودونَ غضب:

ــ إذنْ أضربُكم لأجلِ الجزاءِ ولأجلِ الهرب. والجزاءَ صارَ ضِعفين، يعني: تكتبــونَ الــدرسَ عشرَ مرّات.

وبكلِّ هدوءٍ وحزمٍ بدأَ يضربهم علــى أكفِّهــم بقضيبٍ رفيعٍ من شجرِ الرمّان.

بدأَ الدرسُ بعدَها واستمرَّ طويلاً وسامرٌ شاردُ

الذهنِ يفكِّرُ في المنظرِ الـذي بـدأَ حياتَـهُ فـي المدرسة. لم ينتبِهْ إلى الدرسِ ولم يفهم أيَّ شيء.

وبعدَ الدرسِ لاحـظَ سـامرٌ أن آذن البـاب الحديديِّ الكبيرِ مشغولٌ ببيـعِ المعمـول، فغافَلَـهُ وتسلّلَ من المدرسة، وجلسَ على رصيفِ حـلاّقِ الحارةِ ينتظرُ خروجَ التلاميذِ من المـدارسِ كـي يعودَ إلى البيت.

كان بيتُهم قريباً من السوق، فاسـتمتعَ سـامرٌ بالجلوسِ على الرصيفِ والتفرُّج: عتّالونَ يقودونَ حميراً محمَّلة، وفلاحونَ يحملونَ دجاجـاً وبطّـاً، والناسُ في ذَهابٍ وإيابٍ يحملونَ السِلالَ والحقائبَ ويتسوّقون.

قضى سامرٌ ذلك العامَ الدراسيَّ بين رصـيفِ الحلاّقِ ودكاكينِ الأسواقِ المسقوفة، يتفرّجُ علـى الحدّادينَ والنحّاسينَ والنجّارينَ وصُنّاعِ السكاكين.

وانتهى العامُ الدراسيُّ وأخذَ التلاميذُ جلاءاتِهم المدرسيّة، إلاّ سامراً فلم يــذهبْ إلــى المدرســة واشتكى من وجعِ الرأسِ والــسخونة. كــانَ حقّــاً يعاني، لا يكذبُ ولا يتظاهر.

أرسلَ الأبُ ابنَهُ الأكبرَ ليأتي بجــلاءِ ســامر، وحين عادَ أخبرَ أهلَهُ بأنّ سامراً ليس من تلاميــذ تلك المدرسة، وليس لــه جلاءٌ ولا اسمٌ مكتــوبٌ في أيِّ سجلٍّ أو دفترٍ تفقّد. كانَ خبراً عجيباً جعــلَ الأسرةَ كلَّها تتجمّعُ حولَ سامر، إلاّ أمَّهُ التي أخذت تبعدُهم عنهُ لأنه مريضٌ وساخن.

حينذاك، كانَ الأبُ عند حلاّقِ الحارة، وجــاءهُ ابنُهُ الأكبرُ بالنبأ العجيب. ضحكَ الحــلاّقُ حــينَ عرفَ أن الطفلَ الذي قضى معظمَ العامِ الدراســيِّ على رصيفِ دكّانه هــو ا بــنُ جــارِه وصــديقه وزَبونه، فحكَى لــَـه ما يعرفُهُ وانتهت الحكايةُ عندَ الحلاّقِ بالضحك، وفي البيتِ انتهت بالترضية.

في العامِ التالي سجّلهُ أخوهُ الأكبرُ في المدرسة الرسميّة، وانتظمَ الطفلُ في الدراسة، وكانَ متفوّقاً على الجميع.

××××

في منتصف سنته الدراسية الخامسة، انتقلَ أبوهُ بتجارته وأسرته إلى القامشلي. ولم يمضِ أسبوعٌ حتى تقدّموا إلى امتحانات الفصل الدراسيِّ الأوّل. حصلَ سامرٌ على المرتبةِ الأولى وعلى شهادةِ امتيازٍ من المدير.

حقدَ عليه زميلُهُ رامي، وهو الأوّلُ على الصفِّ قبلَ مجيء سامر. تغيّرَ سلوكُ رامي يوماً بعدَ أن فقدَ الدرجةَ الأولى؛ كانَ نشيطاً ومرحاً وإن عابَهُ بعضُ الغرور، فبدأَ يميلُ إلى العنفِ والعدوان.

في أحدِ دروسِ الحسابِ خرجَ رامي إلى

السبّورةِ كي يحلّ مسألةً جديدة، لكنهُ أخطأَ وارتبَك. تقدّمَ سامرٌ وحلَّها بسرعةٍ وسهولة. عندَ ذلكَ لمعَ الشرُّ في وجهِ رامي فارتعبَ سامر.

خرجوا من المدرسة، ووقفَ رامي ينتظرُ سامراً في شارعٍ فَرعيٍّ خالٍ من الناس. فوجئَ به سامرٌ فجمُدَ في مكانه، أمّا رامي فأمسكَهُ من قبّةِ قميصه وهزَّهُ بعنف، وأمرَهَ أن يقلّلَ من "شطارته" كي لاَ يكونَ الأوّلَ في آخرِ العام، وإلاّ فإنهُ سينتقمُ منهُ شرَّ انتقام.

خافَ سامرٌ من التهديد، وصارَ يتكاسلُ في الصفِّ ولا يجيبُ على معظمِ الأسئلة، ولا يتطوّعُ لحلِّ مسألةٍ جديدةٍ أو إعرابِ صعب.

المعلّمونَ كانوا يعرفونَ تفوّقَهُ فاستغربوا حالَهُ وسألوه. أخبَرهم بتهديدِ رامي فاستدعَوهُ وهدّدوهُ بعقوبةٍ رادعة.

وحينَ خرجوا من المدرسة، اختبأ رامي في الشارعِ الفرعيِّ ينتظرُ سامراً مرّةً ثانية.

رأى سامرٌ خَصمَهُ من بعيد فغيّرَ طريقَهُ وأسرعَ يبتعد. أسرعَ رامي وراءهُ وانهالَ عليهِ ضرباً ولكماً وهربَ قبلَ أن يتجمّعَ الناس.

ذهبَ سامرٌ إلى بستانٍ قد استأجرَهُ والدهُ، واستلقى تحتَ مجموعةٍ منَ أشجارِ الجوزِ الضخمةِ يفكّرُ في مشكلته. قالَ في نفسه: الحلبيّونَ كلّهم شجعانٌ وأبطالَ، فلماذا أنا خجولٌ جبانٌ حسّاسٌ أبكي لأيِّ تأثير.

واقتربَ سربٌ من طيورِ الربيعِ المُهاجِرةِ وحطَّ على أشجارِ الجوزِ. كانَ مجموعةً مختلطةً من طيورٍ غريبةٍ ملوّنةٍ تشبهُ الببّغاء، ومن طيورِ النارِ ذاتِ الذيولِ الحمراءِ الطويلة.

نسيَ سامرٌ مشكلتَهُ وغرِقَ في تأمّلِ الطيور.

فجأةً أحسَّ بشيء يقتربُ منه بلا أيِّ صــوت، والتفتَ فرأى الصيّادَ الشهيرَ الملقَّبَ "عنتر"، الذي لا يبلغُ الثلاثينَ من العمرِ ويزعُمُ أنه يصطادُ مــن أربعينَ سنة. كانَ كعادته متسلّحاً ببــارودة صــيدِه ذاتِ العيارِ الثقيل، واقفاً يلقّمُها طلقةً ضخمةً.

فكّرَ سامرٌ بسرعة: ما المتعةُ في قتلِ طيــورٍ جميلةٍ بريئة؟ وفي لحظةٍ خاطفة قــرّر: ســأمنعُه وليكنْ ما يكون. وفي لحظةٍ خاطفةٍ أيــضاً، كــانَ يمسكُ السبطانةَ ويوجّهها جانباً وهو يصرخ فــي وجهِ عنتر:

ــ اذهبْ من هنا.

غضبَ عنترٌ واصفرَّ لونه، وتراجعَ وهو يوجِّهُ البارودةَ إلى صَدرِ سامر، وبدأ يضغطُ على الزنادِ ببطءٍ وحقد.

تجمّدَ سامرٌ من الرعبِ والحقدِ لكنهُ قرّرَ فــي

لحظة خاطفة: سأقاومُه ولْيكنْ ما يكون. ثم هجــمَ على البارودةِ وانتزعَها وألقاها جانباً وهو يقول:

ــ اذهبْ من هنا و لا تعُدْ مرّةً ثانية، وســوف أحكي لأبي كلَّ شيء.

معَ خبطةِ البارودةِ على الأرضِ كانت طيــورُ الربيعِ قد طارَت وابتعدَت في السماء.

التقطَ عنترٌ بارودتَهُ مــذهولاً لا يــصدّقُ مــا حدث، وابتعدَ ببطءٍ عن المكان.

عادَ سامرٌ يستلقي تحتَ أشجارِ الجوزِ ويفكِّــرُ فيما فعل. شعرَ بالعزّةِ والكرامةِ والشجاعة، وانتبَهَ إلى نفسهِ يقولُ بــصوتٍ مــسموع: بــينَ الجــبنِ والشجاعَةِ مقدارُ شعرةٍ أو لحظةٍ خاطفة.

العُبَيْداس

كلّ العجائزِ والكهولِ في القامشلي يتــذكّرونَ ولا ينسَونَ شتاءَ عــام ألــفٍ وتــسعمئةٍ وســت وخمسين:

الخريفُ يهربُ في الــشوارعِ مــسرعاً أمــامَ هجومِ الشتاء. هجومٌ مبكّرٌ ببــرد قــارسٍ وريــحٍ صقيعيّةٍ عاصفة. اختفت الملابسُ الخفيفــةُ فجــأةً وحلّت محلَّها الطويلةُ السميكةُ الدفيئة. وعلى بعضِ الرجال الأغنياءِ ارتفعَت معاطفُ طويلــةٌ أنيقــة،

تتسدلُ على أجسادهم بفخامة وهَيبة كأنها تقــول: اقتربْ أيّها البردُ الجَبانُ إن كُنتَ تجرؤ..

تلاميذُ المدارسِ خبّؤوا كــلّ بنطــال قــصيرٍ وصَندَل[1]، وواجهوا البردَ القارسَ والطينَ الشاملَ بالجزمات المطّاطيّة العاليــة الــساق، والكنــزاتِ الصوفيّة السميكة، ثم استمرّوا يتجوّلونَ ويلعبــونَ بأمانٍ واعتياد.

لكنّ تلميذاً في مدرسة الحيِّ الغربيِّ من البلدة، كان ظاهرةً مخالفةً لكلِّ ظَواهرِ التصدّي[2] للشتاء. إنهُ شُكري البَكري، وهــو تلميــذٌ فــي الــصفِّ الخامس، ظلّ بملابسِ الصيفِ من بنطالٍ قــصيرٍ وصندلٍ يكادُ يهترئ. ولم تكنِ الصدريّةُ الــسوداءُ قادرةً على تغطيةِ مشكلتِه.

---

(1) حذاء من سيور جلدية يسمح بتهوية القــدمين ويخفــف عنهمــا الحرارة.

(2) التصدّي هو المواجهة بقصد المقاومة.

كان زملاؤهُ يختلسونَ النظـرَ إلـى ملابـسهِ ويتهامسونَ عليهِ مشفقين. أمّا هو فقد اعتادَ علـى أوضاعهِ الغريبةِ، وعلى كتمانِ ألمِه وحسرتِه. فمن هو شكري البكري وما قصّةُ ثيابِه؟

إنه واحدٌ من سبعة بنينَ وبنات، خلّفَهـم أبـوهُ ومات في أواسطِ عمرِه لإفراطِه في التدخين. جاءَ أبوهُ من حلبَ مثلَ كثيرٍ من المغـامرينَ آنـذاك، الذين حلُموا "بالسمنِ والعسلِ" في القامشلي البلـدةِ الجديدةِ الناشئة، والذين كان بعضُهم يوفَّـقُ فـي زراعةٍ أو تجارةٍ أو صَنعة، وبعضُهم كانَ يُخفـقُ ويفلسُ ويعيشُ أبأسَ معيشة. البكـريُّ كـانَ مـن المدمنينَ[1] على البؤسِ والإخفاق؛ تنقّلَ في حلـبَ من مقهى إلى مقهى أجيراً يخدمُ الموائد، وكانَ في كلّ مرّةٍ يُطرَدُ من عملِـهِ لـشدة إهمالـه وكثـرة

---

[1] *الإدمان هو الاعتياد الذي يَصعُب الخلاص منه بسبب ضـعف الإرادة.*

مشاجراته مع الزبائن. وفي ليلة غابَ قمرُها حزمَ أغراضَ بيته القليلة، وجمعَ أسرتَهُ البائسة، وركبَ معهم في شاحنة فارغة وافق سائقُها على نقلهم لوجه الله دونَ أجرة، وانتقلَ إلى القامشلي.

في أرضِ الأحلامِ الكبيرةِ والجديدة، استأجرَ غرفةً كبيرةً عندَ عجوزٍ فقيرة، ودبَّرَ لنفسه عملاً في مقصَف[1] "إيشو" على نهرِ جغجغ. لكنّ مَنْ شبَّ على شيءٍ شابَ عليه، وبدأ البكريُّ يعملُ في القامشلي ما كانَ يعملُهُ في حلب، من إهمال دائم وشجارٍ مع الزبائن، فكانَ كلّما طردَهُ معلِّمٌ[2] لجأَ إلى آخرَ، وما يزالُ يستعطفُهُ متوسِّلاً بأسرته الكبيرةِ الجائعةِ حتى يلينَ قلبُ "المعلِّمِ" ويشغّله.

صارَ البكريُّ مشهوراً عندَ أصحابِ المقاهي

---

(1) القصفُ هو الأكلُ واللهوُ والشرب. واسم المكانُ مَقصَف.

(2) عامّة الناس تطلق لقب المعلِّم على ربِّ العمل، وهو المقصود هنا.

والمقاصف، وكانوا يشغّلونهُ رغم مشكلاتهِ رأفةً به وبأسرتهِ، وهكذا فرضَ نفسَهُ على الجميعِ يشغّلونهُ "لوجه الله". وحين تلفت رئتاهُ من التدخين ومات، كانَ أَصغرُ أبنائهِ رضيعاً والأكبرُ (شكري) في الصفِّ الخامس، وهو الوحيدُ الذي دخلَ المدرسة.

أشفقَ أهلُ الخيرِ على أمِّ شكري ووظّفوها آذنةً في مدرسةٍ خاصّة للبنات. كانَ راتبُها الشهريُّ ثلاثينَ ليرةً سوريةً، فلم يكنْ يعلَمُ إلاّ اللهُ كيف تدبِّرُ معيشةَ الأيتام، كما كانت ثيابُ أولادها حديثَ أهلِ البلدةِ لا عن سخريةٍ بل عن شفقة، كان المُحسنونَ يجودونَ عليهم بما يستغنونَ عنهُ من ثياب، فترفضُها الأمُّ بإصرارٍ وتعلّمُ أولادَها معنى الإباءِ والكرامة.

أمّا شكري أكبرُ أولادها فكانت تعتني بثيابهِ أكثرَ من البقيّة، ومع ذلك كانت دائماً تعجزُ عن تأمينِها في الوقتِ المناسب، فلا تشتريها حتى يكونَ

أوانُها قد قاربَ الانتهاء. وهكذا كانت الجزمةُ المطّاطيّةُ وبِنطالُ الجوخِ الطويلُ يلازِمانه حتى أواسطِ الصيف، والصندلُ الصيفيُّ والبنطالُ القصيرُ يلازمانه حتى منتصف الشتاء. وفي شتاءِ هذه الحكاية، كانَ شكري مثلَ ذكرى من الصيفِ تتجوّلُ في زَمْهَريرِ[1] الشتاء.

مع قَسوةِ الشتاءِ انتقلَ إلى مدرسة شكري معلّمُ رياضة جديد، متخصّصٌ بالرياضة لكبارِ التلاميذ، أي للصفّينِ الرابعِ والخامس، الذيَ كانت المرحلةُ الابتدائيةُ تنتهي به آنذاك.

كان أستاذُ الرياضة الجديدُ جلاّداً أكثرَ منهُ معلّماً، يُخرجُ التلاميذَ إلى الباحةِ حتى تحتَ المطر، ولم يكنْ يرحَمُ المريضَ أوَ الضيف، ولا يقبلُ أيَّ عذرٍ للإعفاءِ من درسِهِ ولو بشكلٍ مؤقّت.

---

[1] *الزمهرير هو البرد القارس.*

أمّا اهتمامُهُ الشديدُ بالملابسِ الرياضيةِ الموحَّـدة، فيوحي بأنه تاجرُ ثيابٍ وأحذية. فرضَ على جميعِ التلاميذِ نوعاً معيّناً من القمصانِ القطنيّةِ البيضاء، ونوعاً معيَّناً من السراويلِ القصيرةِ السوداء، وأحذيةً رياضيّةً من نوعٍ تركيٍّ جديدٍ كانَ يلبَسُهُ بعضُ التلاميذِ الأغنياءِ، وهو المسمّى (أبيداس).

دبّرَت أمُّ شكري القميصَ والسروالَ الأسودَ بكلِّ ما كانت تدّخرُه، أمّا الأبيداسُ فكانَ ثمنُهُ معجزة؛ عشرةُ أضعافِ ثمنِ الخفِّ الصينيِّ آنذاك، والذي كان معظمُ التلاميذِ والطلاّبِ الكبارِ يلبَسونَهُ للرياضة. أصابَت شكري تلك الرعشةُ الساخنةُ المصحوبةُ بخفقٍ شديدٍ لقلبه، وهو يواجهُ من جديدٍ مشكلةَ الأحذيةِ، التي تلازمُهُ في الصيفِ وفي الشتاء. لكنّ رعشتَهُ هذه المرّة كانت عنيفةً تشبهُ

الهلَع[1]، وهو يحاولُ إبعادَ صورةِ معلِّمِ الرياضةِ عن خيالِه دونَ جدوى. ونامَ تلكَ الليلةَ نوماً متقطّعاً، عَذّبتهُ فيهِ عدّةُ أحلامٍ مزعجة.

××××

صباحَ اليومِ التالي وفي المدرسة، كانَ درسُ الرياضةِ في الحصّةِ الثالثة. لم يستطعْ شكري أن يستوعبَ الدرسينِ السابقينِ ولا أجابَ على سؤالٍ واحدٍ بشكلٍ صحيح. وفي بدايةِ الحصّةِ الثالثةِ دخلوا إلى الصفِّ وتهيّؤوا بملابسِ الرياضةِ ثم عادوا ليصطفّوا في الباحة مثنى. تقدّم أستاذُ الرياضةِ رافعَ الرأسِ مشدودَ الجذعِ إلى الخلفِ على عادته، وبدأ يتمشّى قربَهم ومسحُهم واحداً واحداً من الأكتافِ حتى القدمين، يراقبُ ملابسَهم بدقّةٍ وحرصٍ شديدينِ ولا سيّما الأحذية، ويخرِجُ المخالِفينَ جانباً بإشارةٍ

---

[1] شدّة الخوف والفزع.

من عصاهُ الغليظةُ العريضة، مستخدماً جُمَلاً قصيرةً لا يغيّرُها: أينَ القميص؟ أينَ البنطال، أين الأبيداس؟ وحين انتهى من هذا التفقّد، اقتربَ من المخالِفينَ وألقى إنذارَهُ الأخير:

ــ اسمعْ أنت وإيّاه: لا أريدُ مخالفةً في الدرسِ القادم. المخالِفُ لا يحضُرْ إلى المدرسةِ كي لا ينالَ العقوبة.

وأشارَ بعصاهُ جانباً وهو يلقي قرارَهُ الحاسم:

ــ قفوا في جانبِ الباحة. أنتم محرومونَ من درسي.

ابتعدَ المخالِفونَ إلى طرفِ الباحة، ولَمّا كانت معظمُ المخالفاتِ في الحذاء فقدَ خصَّهُ بنهايةِ كلامِهِ وركّزَ عليه:

ــ اسمعْ أنت وإيّاه: الخفُّ الصينيُّ ممنوع. الصندلُ الصيفيُّ ممنوع يا شكري البكري. الحذاءُ

النظاميُّ هو أبيداس. غيرُ الأبيداس ممنوع. لا أقبلُ غيرَ أبيداس.

كان بينَ النظاميّينَ تلميذٌ بدويٌّ مَـرِحٌ يُـدعى (حمدان المطلَق). رآه المخالفونَ يبتسم، وخافوا أن ينتبهَ الأستاذُ إليه فحرفوا أنظارَهم عنهُ مـرتبكين، لكنّ الأستاذَ لم يكن مهتمّاً بغيرِ الأبيداسِ ولم يَلحظْ أيَّ شيء.

بقيَ المخالفونَ واقفينَ في جانبِ الباحـةِ كمـا أمرَ المعلّم. ولمْ يكنْ هذا الوقوفُ يزعجُهم رغـمَ برودةِ الطقس. ما أزعجَهم أنه عقوبـة. وإذ عـادَ شكري إلى البيتِ وجدَ أمّهُ تبشّرُهُ بـشراءِ خـفٍّ صينيّ، يحمي قدميهِ من الصقيعِ ولعلّـهُ يُرضـي أستاذَ الرياضة.

××××

في اليومِ التالي كانَ المخالِفونَ أربعة: واحـدٌ

ملتهبُ الحلقِ واللوزتين مرتفعُ الحرارة، فلم يلبَسْ ملابسَ الرياضة ولم يعفه من العقوبة تدخّلَ المدير. أمّا الثلاثةُ الآخرونَ فكلّهم لم يلبسوا الأبيداس. أكلوا نصيبَهم على أياديهم بالعصا السميكةِ العريضة، وعادوا إلى بيوتِهم بأمرِ المعلّمِ مع إنذارٍ مشدَّد:

ــ لا ترجعوا إلاّ بالأبيداس.

لكنّهم رجعوا في اليومِ التالي بالخفِّ الصينيِّ ومعهم أمّهاتُهم أيضاً، اللواتي جئنَ لمقابلةِ المديرِ بدلَ الآباء، فالآباءُ عادةً يتجنّبونَ هذه القضايا ويعتبرونَها محرجَةً ومخجلة. كانت الأمّهاتُ خائفاتٍ من طردِ أبنائهنّ فأتينَ معهم مع بَدءِ الدوامِ والتقينَ عندَ المدير.

بدأ المديرُ يشكو من أستاذِ الرياضةِ أكثرَ منهم. قالت أمُّ شكري إنّ طردَ الطلاّبِ ممنوعٌ حسْبَ النظام، فأيّدَها المديرُ وأضاف:

ــ أنا مديرٌ من عشرِ سنوات وأعــرفُ هــذا. وقد تكلّمتُ مع المفتشينَ ومديرِ التربيــة.. طلبــتُ معاقبةَ هذا المعلِّمِ فرفضوا.. طلبــتُ نقلَــهُ مــن مدرستي: فقالوا: ليس لدَينا بديل، ولا يحقُّ لنــا أن ننقلَهُ من عندكَ وننقلَ غيرَهُ إلى مدرستك غــصباً عن إرادةِ المعلِّمِ الآخَر.. وتــابعَ غاضــباً وآســفاً وشاعراً بالعجز:

ــ سامحوني يا جماعة. المشكلةُ أكبــرُ مــن طاقتي.

قالت أمُّ شكري بجرأةٍ اكتسبتها من مخاطبــةِ المدراءِ والمعلّمين:

ــ ما دمتَ لا تقدرُ على نقلِ المعلّم، فــسوف أنقلُ ولدي.

سألَ المدير: إلى أين؟

أجابت أمُّ شكري: إلى مدرسةِ صلاحِ الــدين،

ولو كانت في الطرف الثاني من البلد.

جلسَ المديرُ يائساً وهو يقول:

ــ المعلّمُ نفسُهُ يعملُ فيها. ســـاعاتهُ مقـــسومةٌ على المدرستين.

تساءلَت المرأةُ مستغربة:

ــ معلّمٌ مقسومٌ على مدرستين!؟ بحيـــاتي لـــم أسمعْ بهذا.

قال المدير وقد وجدَ فرصةً ليظهِرَ لهـــم أنـــه مدير:

ــ هذا هو النظامُ يا جماعة. الرابعُ والخامسُ عندَنا شعبَتانِ فقط، ورياضتُهم نصفُ واجبِه، وفي صلاح الدينِ الوضعُ نفسُه. أرجوكم ساعدوني على حلِّ المشكلة.

قالت أمّ شكري بانزعاج:

ــ نحنُ يا أستاذ!؟ نحنُ المساكينُ نساعدُك!؟

قالَ المدير:

ــ أنا المسكينُ في هذه المشكلةِ أكثــرَ مــنكم.

صدّقوني:

فسألت أم شكري: وكيف نساعدُك؟

قالَ بلهجةِ نصيحةٍ وإقناع:

ــ دبّروا أنفسَكم، اشتروا الأبيداس.

فخرجَت أمُّ شكري من الإدارة وهــي تتــذمّرُ قائلة:

ــ هوه.. هوه.. عُدْنا إلى الأبيداس..

أمّا في الصفِّ الخامسِ فجرى حــديثٌ آخَــر. كان البدَويُّ حمدانُ يهمسُ لــشكري وقــد جلــسَ بجانبِه:

ــ البِسْ ما تشاءُ ولا تهتمّ. سأحرّضُ الــصفّ على الإضرابِ عن العُبَيْداس.. غداً سوف ترى.

في اليومِ التالي لم يكنْ شكري يستطيعُ شــيئاً

غيرَ المجيءِ إلى المدرسةِ بالخفِّ الصينيِّ قائلاً في نفسه: ليكُنْ ما يكون. وفي المدرسةِ وجدَ زملاءَهُ كما توقّع: لبِسوا الأبيداسَ ولم يجرؤوا علىٍ الإضراب. والمخالفونَ منهم مثلَهُ كانوا بالخفِّ الصينيِّ لأنهم أفقرُ الفقراء. وفي درسِ الرياضة، بدأ الأستاذُ يغلي ويفورُ وأخرجَهم جانباً كي يعاقبَهم بعصاهُ الغليظة، ثمّ ليطردَهم بعدَها إلى البيت. وقبلَ أن يكملَ تفتيشَهُ على الملابسِ فوجئَ بمخالفةٍ غريبة: حمدانُ المطلَقُ بالجزمةِ المطّاطية، العاليةِ الساقِ حتى الركبة!!

ــ ما هذا يا حمدان؟ أينَ الأبيداس؟

وبدأتْ مناقشةٌ غريبةٌ عجيبة، جديّةٌ وهزْليّةٌ في الوقتِ نفسه. هي باللهجةِ العاميّةِ طبعاً، وسوف أحاولُ نقلَها بلغةٍ فصحىَ قريبةٍ إلى حقيقتِها قدْرَ الإمكان.

قال حمدانُ وهو ينظرُ في عيني المعلِّم:

ــ بعدَ اليومِ لن ألبسَ العُبَيْداس.

ــ اسمُهُ الأبيداس.

ــ أنت تسمّيهِ ما تريد، ونحنُ البــدوُ نــسمّيهِ العُبَيْداس.

ــ ولماذا لن تلبسَه؟

ــ حتى الخفُّ الصينيُّ لن ألبسَه.

ــ سألتُكَ: لماذا؟

ــ لماذا تعذّبُ الأولادَ لأجلِه؟ أما تراهم فقراءَ مساكين؟

ــ هــل أصــبحتَ محاميــاً عــن الفقــراءِ والمساكين؟

غضبَ حمدانُ غضبةً بدويّةً وصارت لهجتُــهُ حاسمةً قاطعةً كحدِّ السيف. قالَ قابــضاً أصــابعَهُ موجِّهاً سبّابتَهُ إلى الأستاذ:

ــ أحامي عنهم وعن الجميع.
مدّ المعلّمُ يدَهُ بعصاهُ وهزّها قائلاً:
ــ افتحْ يدَك.
ــ ما أفتحها، وما أسمحْ لك بضربي.
صرخَ المعلّمُ مرتجفاً:
ــ افتحْ يدَك.
فصرخَ حمدان:
ــ لا تصرخْ بوجهي.
ــ ارجعْ إلى البيت.
ــ ما ارجعْ إلى البيت.
ــ ارجعْ إلى البيت، ولا تعدْ إلاّ مع أبيك.
ــ إن جاءَ والدي فلن يحصلَ خير.
ــ أتهدّدُني يا ولد!؟
ــ اسمي حُمَيدانُ المُطَيلق ولست بولد. وأنــت

ما تطردَني وما تضربَني. وما ألبَسَ العُبَيْداس.

كانَ غيظُ المعلّمِ وهزيمتُهُ حالةً مرعبةً لكنّ التلاميذَ انفجروا بالضحك. حدّقَ الأستاذُ إليهم صامتاً ثم قال:

ــ سأربّيكم أيها الأرذال.

وانفتلَ ذاهباً إلى الإدارة، وانتظروا ما سيحدثُ فلم يحدثْ شيء. جاءَ المديرُ وأخبرَهم أن الأستاذَ أصيبَ بصُداعٍ ولن يكملَ الدرس. وبهدوئه ورعايتِه أدخلَهم إلى الصفِّ وأرسلَ إليهم معلِّمَ الحساب.

أمّا أستاذُ الرياضة، فعلموا بعدَ يومينِ أنهُ انتقلَ من البلدة. وحين جاءَهم بديلُهُ كانَ حمدانُ لهُ بالمرصاد؛ انتظرَ حتى يرى كيف سيعاملُهم وما هي مَطالبُه. لبسَ الخفَّ الصينيَ في درسه مرّةً وجزمةَ المطّاط مرّةً ثانية، وحين اطمأنّ إلى

تسامُحِه وحُسنِ معاملَتِه، عندَها فقط عادَ إلى لُبسِ العُبَيْداس.

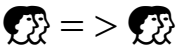

ذلك الماضي الجميل

مقدِّمةٌ قبلَ الحكاية:

كثيراً ما يتحدّثُ الكبارُ عن طفولتِهم وشبابِهم فيقولونَ متحسّرين: (ذلك الماضي الجميل.. أوّاه لو يعود..) أمّا أنا فأتذكّرُ الماضي وأقول: لاَ تصدّقوا كلَّ ما تسمعون، ولا تنظروا إلى قضايا التاريخِ نظرةً عاطفيّة. لكلِّ زمانٍ حسَناتُهُ وسيّئاتُه، وفيه أناسُهُ الأخيارَ وأناسُهُ الأشرار. والماضي حتى لو كانَ خيراً كلّهُ فلا يفيدُنا أن نَسجُنَ أنفسَنا

في ذكرياته. المفيدُ هو أن نستوحي منها عبرةً حسنة، كي نجعلَ حاضرَنا أفضلَ من أمسِنا، ومستقبلَنا أفضلَ من الحاضرِ والماضي كِلَيهِما.

لكنّ المتحسّرينَ على الماضي كثيرون، وتأثيرُهم على الأجيالِ الناشئةِ قويٌّ وهَدّامٌ للوعيِ والإرادة. إنهم لا يصوّرونَ من الماضي غيرَ مظاهرِ الخير، ويزيّفونَ مظاهرَ الشرِّ فيصوِّرونَها خيراً أيضاً، ثم يضخّمون هذه المظاهرَ الخيّرةَ الحقيقيّةَ والمزيَّفة، ويبالغونَ فيها بشكلٍ عجائبيٍّ غرائبيّ، حتى تبدو كأنها من فِردَوسِ اللهِ وليست من صنعِ البشر. هكذا يدوّخونَ الأجيالَ بالأوهامِ فلا تفكِّرُ في الماضي بواقعيّة، ويبقونَ أنظارها متطلّعةً إلى الخلفِ فلا تنظرُ إلى الحاضرِ والمستقبلِ بأملٍ أو طموحٍ أو حماسة. هذه النظرةُ الجامدةُ إلى الخلفِ تسمّى: رَجعيّة.

لقد بلغتُ من العُمرِ سنَّ الكهولة، وعِشتُ

الماضيَ الذي يتغنّى به بعضُنا عن قصد أو غيرِ قصد، وكنتُ شاهداً عليه كما كانَ أبنـاءُ جيلـي، فاسمحوا لي أن أقدّمَ لكم صورةً من الماضي الذي يتحسّرُ الرجعيّونَ على جماله، لتكونوا حكَماً بينـي وبينهم، وسوف أقبلُ بِحُكمِكم مهما كـان.. ولْنبـدأ الحكاية:

××××

كانت ليلةً مُبرقـةً مُرعـدة، والأمُّ وأطفالُهـا العشَرةُ يتدفَّؤونَ بـالخوف ويتغـذَّونَ بالأُمنيـات، وينتظرونَ مجيءَ الأبِ من السوقِ لعلّ وعسى.

أمّا الأبُ المنتظَر، الحارسُ الليليُّ في سـوقِ القامشلي، فكانَ يُحضِّرُ لهم مفاجأة. لقـد اسـتأجرَ دكّانَ سجنِ البلدة، كي يدعمَ راتبَهُ الضئيلَ ويُـريحَ ضميرَهُ الذي يعذِّبُهُ جوعُ أُسرته وعُريُها. ولَمّا كان موظّفاً عندَ الدولة، ولا يَحقُّ لـه أن يمارسَ عملاً آخرَ غيرَ الحراسة، فقد جعلَ عقدَ الإيجـارِ باسـمِ

زوجتِهِ ووقّعَ بدلاً منها.

هكذا جاءَهم في ذاك المساءِ متفائلاً على غيرِ عادتِه، ومبشِّراً بالنبأ العظيم.

وقبلَ أن يقدّمَ الأبُ التفاصيل، فهِمها ابنُهُ سالِمٌ واندفعَ يشرحُ لأهله:

ــ أنا سأشتغلُ في الدكان. سأداومُ في المدرسةِ كالعادة، وأعملَ في الدكّانِ بعدَ الدوام.

اعترضَت الأمُّ قائلةً: ودراستُك؟

ــ دراستي لن تتغيَّر. أنا الأوَّلُ في صفّي دائماً وأحفظُ دروسي كلَّها من أفواهِ الأساتذة.

وتابعَ الأبُ يشجّعُ ابنَهُ ويُقنِعُ الأمّ:

ــ ثم إنه في الصفِّ الرابعِ وهو صفٌّ هَــيِّن. وعندَما يصيرُ في الصفِّ الخامسِ صفِّ الــشهادة، يَحُلُّ مَحَلَّهُ في الدكّانِ أحــدُ إخوتِــه، الأكبــرُ أو الأصغرُ لا فرق، ويتمكّنُ سالِمٌ من التفــوّقِ فــي

الشهادة.

وما كادَ الأبُ يطمئنُّ إلى أنهُ رتَّبَ المسألة، حتى عاجلَهُ سالمٌ بسؤالٍ يدلّ على الحرصِ في أمورِ المالِ والتجارة:

ــ لكنْ، من سيشتغلُ في الدكّانِ أثناءَ دوامي في المدرسة؟

أجابهُ الأبُ مسرِّحاً بصرَهُ في البعيد:

ــ ستبقى مغلقة، فالسجناءُ لا يستعجلونَ شيئاً، والزمنُ عندَهم دونَ قيمة.

××××

من يومِها صارَ سالمٌ ينطلقُ من المدرسةِ فوراً إلى الدكّان، وصارَ غداؤُهُ أحسنَ من غداءِ البيتِ وأطيب، فهو كأفضلِ ما يشتهيهِ السجناءُ: خبزٌ وحلاوةٌ أو خبزٌ وجبن، وربّما خبزٌ وجبنٌ وحلاوةٌ أيضاً. أمّا في حالاتِ النعمةِ الزائدةِ والترف، فهو

خبزٌ وسردين.

كان معظمُ السجناءِ فقراء، يكتفونَ بما تقدِّمُــهُ الدولةُ لهم من طعامٍ وشاي. لكنّ بعــضَهم كــانوا يشتهونَ تنويعَ طعامِهم أو الترفيــهَ عــن أنفــسِهم بشراءِ طعامٍ آخَر. وكانَ فــي الــدكّانِ ــ حــسبَ طلباتِهم ــ خبزٌ ومعلَّباتٌ وأطعمةٌ ناشفة، ولا سيّما الجبنُ والتمرُ والحلاوة، تلك الأغذيةُ التي تناســبُ السجناءَ كما تناسبُ الدَرَكَ المقيمينَ فــي مخفــرِ السجنِ وهو نفسُهُ مخفرُ مركزِ المنطقــة، وكــانوا يزيدونَ عن عشرة.

أحضرَ سالمٌ مرّةً كيساً من البرتقالِ بعدَ طلباتٍ كثيرةٍ من السجناء، فاشترى أحدُهم رِطلاً وآخَــرُ نصفَ رِطل، واختفى بقيّةُ المطــالبينَ بالبرتقــال. واكتشفَ سالمٌ أنّ معظَمَ المطالبينَ بالبرتقالِ جماعةٌ صغيرةٌ من الأصدقاء ليس أكثَر، وطلبُهم هو طلبٌ واحدٌ وليس أكثر. من يومِها لم يعدْ يغامِرُ بــشراءِ

الخضَرِ والفاكهةِ إلاّ على قدرِ طلبِ السجينِ، على أن يُحضِرَ لـــه الطلبَ في اليومِ التالي بعدَ خروجِهِ من المدرسة.

××××

حين انتهى العامُ الدراسيُّ تفرّغَ سالِمٌ للـــدكّانِ وصارَ يقدِّمُ لأبيه كلَّ مساء أرباحَهُ اليوميّة، التـــي لو جُمِعَتْ في شهرٍ لكانت أكبرَ من راتـــب الأب، فأصبحَ سالِمٌ جَملَ الْمَحامِلِ[1] حقّاً ومُطعِمَ أهلِه.

ما كانَ يجهلُهُ أهلُ سالِم، هو الإرهـــاقُ الـــذي كان يعانيه في حرِّ الجزيرةِ اللاهب. كانت ســـلّتهُ معلّقةً طولَ النهار إلى زَندِهِ المنثني إلى صـــدرِه، وهو يسعى بين السوقِ والـــدكّانِ لتلبيـــة مطالـــبِ السجناءِ المتجدِّدة، الذين شجَّعَهم عليها تفرّغُه لَهـــم

---

(1) تعبير عن الإنسان الذي يقوم بالأعباء والمهمات الجليلة، تشبيهاً لـــه بالجمل الذي يحمل الأحمال الهامة المتميزة كالنـــساء أو البضائع الفخمة.

طولَ النهار.

ولم يكنْ يصعبُ عليه التعاملُ مع السجناءِ رغمَ صغرِ سنّه. إنهم خلفَ القضبان، عاجزون عن الأذى إن فكّروا فيه. لكنّ بعضَهم كانَ يمارسُ في السجن ما اعتادَ عليه قبلَهُ من النصب والاحتيال، كأن يطلبَ شيئاً ويأخذَهُ ولا يدفعَ ثمنَهُ زاعماً أنه دفعَهُ مسبقاً، لكنّها كانت حالاتٍ قليلة.

معظمُ السجناءِ كانوا طيّبينَ صادقين. وكانت طيبتُهم وصدقُهم سبباً لحَيْرةِ الدكّانيّ الصغيرِ الدائمة. كانَ في نفسه يتساءل: ما داموا طيّبينَ فكيفَ أصبحوا خلفَ القضبان؟

ويوماً بعدَ يوم، بدأتْ تنشأُ بينَهُ وبينَهم صداقةٌ وأحاديث، عرفَ منها أسبابَ سجنِ الكثيرين. بعضُهم اشتركَ في مشاجرةٍ على البيادر، وما أكثرَ المشاجراتِ على البيادرِ وقتَ الحصاد. وبعضُهم أطلقَ النارَ على أغنامٍ ترعى في زرعِه، ومنهم مَن

تورّطَ في مشكلةٍ عائليّةٍ تطوّرَت إلى معركةٍ عنيفة.

قليلٌ من السجناءِ كانوا بعيدينَ عن صداقةِ سالمٍ ومحادثتِه، وكانوا بينَ زملائهم أيضاً وحيدينَ منعزلين. أولئكَ هم المجرمونَ جرائمَ فظيعةً أو دنيئة، يخجلونَ من التحدّثِ عنها، ويحتقرُها الناسُ والمساجين.

ولقد سمعَ سالمٌ من سكّانِ (خلفِ القضبانِ) قصصاً كثيرة، عن ظروفِ حياتِهم وأسبابِ سجنِهم. قصصٌ متنوّعةٌ غريبةٌ عجيبة، لكنّها تلتقي في فكرةٍ واحدةٍ هي أنهم أبرياءُ مظلومون. كان سالمٌ يصدِّقُ تلكَ القصص، لكنه ــ في دخيلةِ[1] نفسِه ــ يختلفُ مع أصحابِها في تفسيرِهم لها واعتقادِهم بأنهم أبرياء. إنه يؤمنُ إيماناً مطلقاً بأنّ البريءَ لا يدخلُ السجن، وبأنّ الإنسانَ لا يُعاقَبُ

---

[1] *دخيلةُ النفسِ داخلُها وضميرُها.*

إلاّ إن ارتكبَ ما يوجبُ العقوبةَ مهما كانَ جُرمُــهُ تافهاً، ولا يُعاقَبُ إلاّ على قدْرِ جُرمِه لا أكثــر ولا أقلّ. لكنّ إيمانَهُ هذا تغيّرَ في ذلك الصَيف.

××××

كانَ يوماً جهنّميّاً من قلْبِ تمّوز. الوقتُ بعــدَ الظهيرة، وقد نامَ كلّ مَن في السجنِ أو احتجبــوا وسكنوا في ظلالِ الغرف. لم يكنْ أحدٌ من السجناء ليزعِجَ نفسَهُ أو سالِماً بطلبِ شيء، فتغدّى الدكّانيُّ الصغيرُ وجلسَ على درَجِ السجنِ في ظلِّ شــجرةِ السنديانِ الضخمة، يتبرّدُ ويتمتّعُ بمنظــر نباتــاتِ الحديقة.

اقتربَت من الحديقةِ سيارةُ جيب حديثةُ الطِرازِ لكنّها معفّرةٌ بالتراب، مما يعني أنها لأحد أغنيــاء الريف، الذين يشترونَ سيّارات حديثةً كلّمَا حصلوا على مَوسمٍ جيّد. توقّفَت السيارةُ ونــزلَ صــاحبُها وثلاثةٌ من الدرَكِ يقتادونَ رجُلاً كهلاً رثَّ الثيــابِ

معفَّراً بالترابِ مقيّدَ اليدينِ بالحديد.

عرَفَ سالمٌ صاحبَ السيّارةِ لكثـرةِ زياراتـه للسجنِ ومخفرِ الدرك. إنه إقطاعيٌّ شـهير يملـكُ عشَراتِ القُرى، متوسِّطُ العُمرِ مَهيبٌ[1] وسـيمٌ[2] الملامح، ذو وجه أبيضَ مُتَورِّدٍ بحُمـرةِ العافيـة، وشعرٍ فضّيٍّ نصفُ أشيَب.

تقدّمَ السيّدُ نحوَ بابِ المبنى الوحيدِ الكبير، أنيقاً هادئاً رافعَ الرأسِ فخمَ الثياب. وسارَ الدركُ خلفَـهُ يلكمونَ المعتقَلَ ويلكُزونهُ بأعقابِ البنادق:

ــ امشِ يا كلب. تحرّك. هيّا.

وكانَ المعتقَلُ يتلفّتُ بينهم صارخاً باكياً:

ــ ماذا فعلتُ يا ناس؟ أنا مظلوم، يا بشَر.

---

(1) ذو هَيبة. وقد مرّت سابقاً ولا بأسَ في أن نذكّرَ القارئ بها.

(2) الوسامةُ للرجُل بمعنى الجمالِ للمرأة، والصفةُ المـشتركَة هـي الْحُسن.

فيجيبُهُ أحدُهم بضربةٍ من قبضتِه والآخرَ بدَفعةٍ بعقبِ البندقيّةِ وقد اختلطَ صوتاهما:

ــ اخرسْ يا لصّ.. اخرس.

كانوا يفعلونَ ذلك بحقدٍ ظاهرٍ وكأنــه أجــرمَ بحقِّهم أعظمَ جريمة، ويرفعونَ أصواتَهم عمداً كي يسمعَ السيّدُ الذي يسيرُ أمامَهم دون التفات. وقــد تعوّدَ سامرٌ على هذه المناظرِ، وأدركَ أنّ الــدركَ يتبارَونَ في إظهارِ الانحيازِ للسيّدِ والاجتهادِ فــي خدمتِه، طمعاً في كسبِ رضاهُ وربّما عطاياه.

وكانَ رئيسُ المخفرِ الذي يحملُ رتبةَ رقيــبٍ ينظرُ من النافذةِ إلى القادمين، فأسرعَ يرتِّبُ عُــدَّةَ الشُغلِ على طاولتِه: الهاتفَ والمقلَمَــةَ وحافظــةَ الأوراقِ ودفترَ الضبط، وهو دفترٌ كبيرٌ لتــسجيلِ الشكاوى والوقائعِ وشهاداتِ الشهود. وبعدَ ترتيــبِ هذه الأشياءِ بسرعةٍ حملَ اللافتةَ النحاســيةَ التــي حُفِرَتْ عليها عبارةُ "رئيس المخفر"، ومسَحَها بكُمِّ

سُترته.

دخلَ السيّدُ إلى غرفةِ الرقيبِ رئيسِ المخفَـر، ووقفَ الباقونَ في البابِ ينتظرونَ الأوامر. كـان للغرفةِ بابٌ ثانٍ مقابلٌ لبـاب الـدكانِ وهـو الآنَ مفتوحٌ للتهوية، فدخلَ سالمٌ دكّانَـهُ وجلـسَ فيهـا متظاهراً بالبراءة، لكنْ ليرى ويسمع.

نهضَ الرقيبُ للسيّدِ الإقطاعيِّ مرحّباً باسـماً مادّاً يديه ليأخذَهُ بالأحضان، ثم جلسَ أمامَهُ متخلّياً عن طاولتِه.

تبادلَ الرقيبُ والسيّدُ الأسـئلةَ المعتـادةَ عـن الصحةِ والأحوالِ والعِيال، ثم نظر الرقيـبُ إلـى سالمٍ هاتفاً:

ــ هاتِ بارداً يا ولد.

فأسرعَ إليهما بزجاجتينِ مثلّجتينِ مـن الميـاه الغازيّةِ (الكازوز)، أخذَ إحداهما الرقيبُ وقـدّمَها

للإقطاعيِّ بنفسه، ثمّ مدّ يدَهُ إلـــى جيبِـــهِ فأســـرعَ الإقطاعيُّ يمسِكُهُ ويمنعُهُ قائلاً:

ــ لا بالله. لا يجوز.

ثم دفعَ المالَ لسالمٍ دونَ أن ينظرَ إليـــه كأنـــه يحتقرُ هذا المبلغَ التافهَ من المالِ والولدَ الذي دفعَهُ إليه.

خرجَ سالمٌ من البابِ وأرادَ أن يغلِقَهُ تأدُّباً لأنه يكشفُ المشهدَ على دكّانِه، لكنّ الرقيبَ والسيّدَ قالا في وقتٍ واحد:

ــ لا داعي، دعنا نتهوّى.

وحينَ جلسَ سالمٌ في مكانه المعتاد في الدكان، كان السيّدُ يهمسُ للرقيبِ مشيراً إلى البابِ الثـــاني حيثُ يقفُ المتّهَمُ وحرّاسُهُ الثلاثة. ثم غمزَ بعينِـــهِ وتضاحكَ الرجُلانِ وقالَ رئيسُ المخفر:

ــ لا تشغلْ بالَكَ، سأدبِّرُه.

ثم نادى نحو الخارج:

ــ أدخِلوا البطلَ حتى نرى.

أدخلَ الدركُ المتّهمَ فأمرَهم رئيسُ المخفر:

ــ فُكّوا يديه.

أسرعَ أحدُهم يفكُّ قيدَ الحديدِ ويعلّقُهُ على علاقة في الجدار، بينما كانَ الرقيبُ يأمرُ أحد الدركيِّينِ الآخَرين:

ــ يا جاسِم، افتحْ دفترَ الضَبط.

أسرعَ الدركيُّ جاسمٌ منهمكاً؛ فتحَ دفترَ الضَبط وأمسَكَ قلمَ الحبرِ المشكوك بِجيبِ سُترتِهِ وتهيّأَ للعمل.

ارتعبَ المتّهمُ مما يجري لأنه لا يعرفُ ما معنى كلِّ هذا وما هي نتيجتُه، فمسحَ العرقَ عن وجههِ وقالَ للرقيب:

ــ سيّدي، أنا مظلوم. لم أسرِقْ شيئاً والله.

فصرخَ الرقيبُ في وجهِه:

ــ تكذِّبُ سيّدَكَ يا كلب؟

فتابعَ المتّهم:

ــ سيدي، لا تقلْ: كلب. أنا لم أسرِق واسألوا حرّاسَ البيادر. اسألوا القريةَ كلَّها.

قالَ الرقيبُ للسيّدِ بلهجةٍ ساخرة:

ــ صاحبُنا لن يعترف.

ثم أمرَ الدركَ الثلاثة:

ــ خذوهُ وليِّنوا لسانَهُ حتى يعترف. وعنــدَما يعترفُ تماماً أحضِروهُ ليبصُمَ على دفترِ الضبط.

أسرعَ الدركُ لاقتيادِ الرجُلِ فثبَتَ واقفاً وقال:

ــ سيدي، لا تأخذوني، دعوني أحكي.

قالَ الرقيب: سوف تكذب.

قال الرجُل: واللهِ سأحكي الحقيقة.

قالَ الرقيب: احكِ لي، وإذا صـــدَقتَ فــسوف أعفو عنك، وأطلبُ منَ السيّدِ أن يعفوَ عنكَ أيضاً.

تحرّكَ المتّهمُ قليلاً ليخلصَ من قبضةِ الدركيّينِ ويواجهَ رئيسَ المخفر، ومسحَ العرقَ عن وجهــهِ وصمتَ لحظةً ثم قال:

ــ يا سيّدي، كلّنا في القريــة أتبــاعُ الــسيّد، رجالُنا ونساؤنا وأولادُنا وشيوخُنا. نخدمُهُ بعيونِنــا ونخدمُ الأرض، وهو يُطعمُنا من فــضلِه وفــضلِ الله. وهو يعطينا مؤونةَ العامِ كلِّــه مــنَ الطحــينِ والبرغلِ والعدَسِ والسكّرِ والــشايِ أيــضاً، وإذا احتجْنا في الشتاءِ إلى المزيدِ أعطانا من مَؤونتــه. فلماذا أسرقُ من البيدرِ كيسَ عدَسٍ، وماذا أســتفيدُ من هذه السرِقة؟!

أجابَ الرقيبُ مبتسماً بسخريةٍ خفيفة:

ــ وما أدراني؟ اسألْ نفسَك.

قالَ الفلاّح:

ــ يا سيّدي أين سأبيعُ كيسَ العدَس؟ أهلُ القريةِ إن أرادوه فلن يجرؤوا على شرائه، فهل سأحملُهُ على ظهري في الليلِ خمسينَ كيلو متراً لأبيعَهُ في القامشلي؟! هذا غيرُ معقول.

قالَ الرقيبُ بلهجةِ العاقلِ الناصح:

ــ فلماذا سرقتَهُ إذن؟ لماذا؟

قال الفلاّحُ بلهجةٍ توحي بأنهُ يغامرُ بروحِه:

ــ سيدي، سأحكي وليكنْ ما يكون. السيّدُ يريدُ أن يتزوّجَ ابنتي ونحنُ لا نريد.

قال الرقيب وقد بدأ يتفاعلُ بأنه استدرجَ ضحيّتَهُ إلى الموضوعِ الذي يريدُه:

ــ من أنتم؟ ولماذا ترفضون؟

ــ أنا وزوجتي وابنتي. يعني كلُّنا.

قالَ الرقيبُ وهو يتصنّعُ هيئةَ المندهِش:

ــ وهل يوجدُ في الدنيا كلِّها فلاحٌ عاقلٌ يرفضُ مصاهرةَ سيّده؟ إنهُ يشرّفُكَ بهذا الزواجِ يا أحمق.

فقالَ الفلاّحُ بحقدٍ وألَم:

ــ سوف يطلِّقُها بعدَ عامٍ كما فعلَ بغيرِها ونصبحُ بلا شرفٍ ولا كرامة. هذه عادتُهُ في كلِّ موسِم، وهو يتقصَّدُ بناتي لأنهنَّ جميلات.

أجابَ الرقيبُ كأنه يتحدّثُ عن شراءِ خروفٍ وبيعِه:

ــ جميلات، غير جميلات، هذا من الله. والزواجُ والطلاقُ مِن شرعِ الله؛ الزواجُ من حقِّ الرجُلِ والطلاقُ من حقِّه.

قالَ الفلاّحُ وقد شجّعَهُ أنّ الرقيبَ يناقشُه:

ــ وأنا سأخالفُ شرعَ الله وأدخلُ النار.

قالَ الرقيبُ وهو ينهض:

ــ تدخلُ النارَ، تدخلُ جهنّمَ، هذا ليس شأني:

لكنّكَ سرقتَ كيسَ العدَس.

قالَ الفلاّحُ بثباتٍ وهو يضبطُ نفسَه:

ــ لم أسرِقْ أيَّ شيء.

صفَعَهُ الرقيبُ فجأةً وهو يقول:

تكذّبُني أنا بعدَما كذّبتَ سيّدَك؟!

قال الفلاّحُ ثائراً:

ــ أكذّبُ الدنيا كلَّها، ولن أقــدّمَ بنــاتي لـــــه بإرادتي ولا غصباً عنّي.

وانتهى ذلك التحقيقُ بكلمةٍ حاسمةٍ من الرقيب:

ــ خذوه.

××××

أخذوهُ إلى غرفةِ التعذيبِ التي كتبوا عليهــا: "غرفة التحقيق". ألقَوهُ أرضاً على ظهرِه ورفعــوا رجليهِ وقيّدوهما بحزامِ خصرِه، ثم بدؤوا يحقّقــونَ معَهُ كما يُرضي سيّدَه: فَلَقــاً بالخيزرانــاتِ التــي

يسوقونَ بها خيولَهم ويشتهرُ بحملِها كــلّ خيّــال. ومع صراخِه وآلامِه كان المحقّقــونَ يتكــاثرون، وكلّما تعبَ بعضُهم من ضربِه تناوبَهُ الآخَــرون. وكان يكفُّ عن الصراخِ لفقدانِه الإحساسَ بقدميــه أو لغيابِه عن الوعي، فكانوا يحملونهُ مــن كتفيــه ويشحطونَهُ شحطاً إلى المراحيض، فيدلقونَ المــاءَ على رأسِه وقدميه حتى يعودَ الإحساسُ إليه، ثــم يُجبِرونهُ على العودة مشياً إلى غرفةِ "التحقيقِ" كي يتابعوا الشُغل مع المتّهم.

لم يكنْ مطلوباً "من هذا المجرمِ" أن يعتــرفَ بشيءٍ بل أن يعتذرَ من سيّدِه، وبالتــالي أن يقبــلَ بتزويجِه ابنتَه. لكنّهُ كان أصلبَ من الصخرِ وأجبَرَ من الجبابِرة؛ كلّما أُهينَ ثــارتْ كرامتُــه، وكلّمــا أمعَنوا في العنادِ أمعنَ أكثر، وكلّما شتموهُ شــتمَهم وشتمَ الإقطاعيَّ ورئيسَ المخفر. وكلّما هدّدوهُ بقتلِه هدّدَهم ــ إن ظلَّ حيّاً ــ بقتلِهم ثأراً ولو بعدَ حين.

أحسَّ سالِمٌ أنّ قلبَهُ سينفجر، فأغلقَ بابَ الدكّانِ كي يذهبَ إلى البيت، وأسرعَ إليهِ رئيسُ المخفرِ منفعِلاً متعرِّقاً كأنهُ هو الذي كانَ تحتَ الفلق:

ــ سالِم، سالِم. اذهبْ إلى السوقِ واشترِ لنا ربطةَ خيزرانات، عشر خيزراناتٍ أو عشرين.. وأجرتُكَ جاهزة.

ودسَّ الرقيبُ يدهُ في جيبِ بنطالِهِ فسبقَهُ الإقطاعيُّ بيدٍ ممدودةٍ إلى سالِمٍ بمئةِ ليرةٍ وهو يقولُ بابتسامةٍ تحبُّب:

ــ خذها، وخلِّ الباقي لنفسِك.

لكنّ سالماً تجمّدَ من هذا الطلب، فقالَ رئيسُ المخفرِ يشجّعُه:

ــ لا تخجل، خذْها من عمِّك.

قالَ سالِم مرتبكاً.

ــ لا أريد.

فبادرَ الإقطاعيُّ يتقرّبُ إليهِ بالحديثِ عن معرفتهِ بابيه:

ــ أنتَ ابنُ حارسِ السوق؟

فأجابَهُ رئيسُ المخفر:

ــ ولدٌ حَمويٌّ، مثلُ أبيه.

لفظَ الرقيبُ كلمةَ "حَمويّ" بافتخار، فقد كانَ هو حَمويّاً أيضاً، وكانَ أبو سالمٍ مشهوراً بشجاعته، فهو الوحيدُ من حُرّاسِ السوقِ الذي يواجهُ المسلَّحينَ من لصوصِ الليلِ والسكّيرينَ دونَ أن يستخدمَ سلاحَه. لكنّ ما غابَ عن بالِ الرقيبِ أنّ سالماً وأباهُ ليسا مثلَهُ أو مثلَ دركه، لأنَ سالماً نظرَ إلى الإقطاعيِّ والرقيبِ بصمتٍ وكأنه لم يفهم، ثم انصرفَ خارجاً دونَ التفات.

××××

في البيتِ خاطبَهُ أبوهُ بلهجةِ الصديق:

ــ لقد هربْتَ يا سالمُ لكنْ لا تخجلْ من هربك. المهمُّ أنكَ رفضتَ ذاكَ الطلب. غداً سأصحبُكَ إلى الدكانِ وأبقى فيها معكَ طولَ النهار، وإن سمعتُ من رئيسِ المخفرِ أيّةَ كلمةٍ بحقِّك، فسوفَ أُنهي عَقدَ إيجارِها وأمري إلى الله.

××××

في اليومِ التالي بكّرَ سالمٌ وأبوهُ إلى الدكّان. وكانَ سالمٌ مشغولَ البالِ لا على نفسه بل على مصيرِ المتّهمِ بكيسِ العدَس. كانَ المخفرُ على غيرِ العادةِ صامتاً صمتَ القبور. والدركُ يتحرّكونَ مُطرقينَ بأبصارِهم إلى الأرض. وحينَ انشغلَ الأبُ بفتحِ الدكّانَ ذهبَ سالمٌ إلى حاجزِ القضبانِ وسألَ السجينَ الصيّاحَ[1]:

---

[1] *سجينٌ يكلّفه الحرس بالوقوف عند القضبانِ لينادي على السجينِ الذي يطلبونه لمقابلةِ أهلهِ أو للتحقيق، وهو الذي ينادي للدكّانيّ أيضاً.*

ــ هل سجنوا أمسِ رجُلاً متّهَماً بكيسِ عدَس؟

اضطربَ الصيّاحُ وارتعشَ جفناه، ثم ضــبطَ حُزنَهُ وهو يقول:

ــ هنا يوضَــعُ الموقوفــونَ بــأمرِ القاضــي والمحكومونَ بشكلٍ نِهائيّ. أما الموقوفــونَ بــأمرِ الشرطةِ فيوضَعونَ في غرفةِ النَّظارة[١].

قالَ سالِمٌ منصرفاً:

ــ سأرى في النظارة.

فقالَ الصياحُ:

ــ لا داعي. البقيّةُ في حياتِك.

عادَ سالِمٌ إلى أبيه، وهــو يــشعُرُ بالــدُوارِ[٢]

---

(1) في كلّ مخفر للشرطة أو الدرك غرفة للسجنِ المؤقّــت تــسمّى النظارة.

(2) الدَوخة: اضطرابُ التوازُنِ وإحساسِ المرء بأن الأرض تــدور به.

والغَثيانِ[1] وأبلغَهُ ما حدَث، فأطرقَ الأبُ مهموماً بضعَ لحظات، ثم نهضَ إلى بـــابِ الـــدكانَ وهـــو يقول:

ــ سأغلِقُها وأمري إلى الله.

قالَ سالِم:

ــ لا يا أبي. سأبقى فيها. وسوف نعيش.

[1] *الغثيان: إحساس الإنسان بالرغبةِ في التقيؤ.*

الفهرس

اعتذار ٨

الجزء الأوّل : بين الواقع والخيال ١١

أنصاف الحكايات ١٣

الفَراشات ١٩

شاعرُ الشعب ٢٥

وطنُ الفقراء ٣٥

المصباح السحري ٣٩

الأَعداء ٤٥

اللؤلؤة ٤٩

جابِرٌ وجُبَير ٥٧

الليمونات الثلاث ٧٠

سَمراءُ اليمَن ٨٦
((قبائل الزولو)) ٩٨
الطفلُ العجوز ١١٢
الجزء الثاني : ثلاثيّة القامشلي ١٢٥
ملاحظات وتعريفات ١٢٧
طيور الربيع ١٣٠
العُبَيْداس ١٤١
ذلك الماضي الجميل ١٦٠
الفهرس ١٨٦

**